الدكتور أحمد زياد مُحَبِّك

السرير والمرآة

مجموعة قصص

منشورات وزارة الثقافة ـ دمشق
٢٠١٩

العنوان: السرير والمرآة
النوع: قصص قصيرة
المؤلف: الدكتور أحمد زياد محبك
الهاتف الجوال والواتس أب: ٠٠٩٦٣٩٤٤٩٢٨٧٩٢
البريد الرقمي: mohabek@gmail.com
كتبت قصص هذه المجموعة عام٢٠١٥ . ٢٠١٦

منشورات وزارة الثقافة . دمشق
الطبعة الأولى: ٢٠١٩
تصميم الغلاف: عبد العزيز محمد

صورة على قبر العم أبو وحيد*

– ١ –

مات الموظف محمد عبد الجليل الأحمد قبل إحالته على التقاعد بشهر.

وكان ينادى . يرحمه الله . أبو وحيد.

وسرعان ما تنوقل الخبر.

*

قبل أن تفتح أم وحيد عينيها، انقلبت على جنبها، وهي إلى جوار زوجها في الفراش، مدت يدها لتضعها فوقه، وجدت جسمه متخشباً، نزلت يدها على عنقه، فإذا هو بارد، فتحت عينيها، نهضت، وضعت يدها على جبينه، بارد، بارد جداً، جلده متقلِّص، أبيض، شديد البياض، لمسته مرة ثانية، أمسكت يده، رفعتها، وضعت أذنها على فمه.

صرخت فزعة:

. أبو وحيد، أبو وحيد، ردَّ علي.

أبو وحيد لم يرد.

– ٢ –

المدير يرفع سماعة الهاتف، يتصل بمعاونه، يقول له:

* في قصص المجموعة كلها يروى "أبو" على الحكاية، ولا يعرب.

ـ اطلب من المحاسب إيقاف راتب محمد عبد الجليل الأحمد، وافاه الأجل، اليوم صباحاً.

يسأله المعاون عن سبب وفاته، فيجيبه ببساطة:

. لا أعرف، لكن حتماً جلطة.

ويضع سماعة الهاتف، يشعل الغليون، ينفث الدخان المعطَّر.

لن أطلب من المدير العام تعيين بديل، يمكن أن يقوم بعمله زميله حسَّان، أربعة في مكتب واحد، أعمالهم كلها يمكن أن يقوم بها موظف واحد، لكن المدير العام حتماً سيعيِّن بديلاً، ولو بعقد عمل مؤقت لثلاثة أشهر قابلة طبعاً للتجديد، هي فرصة له، عنده طلبات توظيف كثيرة، سيتخلص على الأقل من إلحاح أحد الكبار لتعيين ابنه أو قريبه. على كل حال الرجل لم يكن سيئاً، بل كان مثل بغل الطاحون، لا يعرف سوى الشغل، الله يرحمه.

*

معاون المدير يتصل بالمحاسب، ويخبره بالوفاة، ثم يضع سماعة الهاتف، يشعل سيكارة، يلتفت بكرسيه البرام نحو النافذة العريضة.

أنا لم أظلمه، ولا يمكن أن يكون قد مات بسببي، نعم خرج من مكتبي أمس مستاء، طلب إجازة ليومين، ليتابع معاملة التقاعد، لم أوافق، استنفد كل إجازاته، قال: "سأغيب واحسم راتب اليومين"، اعتبرتها وقاحة منه، قلت له: "لن أقبل غيابك، ولو يومين، سأعتبره انقطاعاً عن العمل،

وسأعتبرك بحكم المستقيل، ولو بقي على موعد تقاعدك يوم واحد، ولن أقبل بتقديم إجازة مرضية ولو جئت بتقرير طبي بإجراء عملية".

أعرف هذه الأساليب، الدوام هو الدوام، والقانون هو القانون، غدا يتقاعد، ويصبح وقته كله حراً، لماذا هذا الجنون؟ لماذا هذه العجلة؟ كان عصبياً وحاد المزاج، ولو بدا في الظاهر هادئ الطبع، على كل حال، يرحمه الله.

*

المحاسب يخبر مساعده بموت محمد عبد الجليل الأحمد، وهو معه في الغرفة نفسها، ثم يقول له:

ـ ما اختار غير يوم ٢٠ نيسان ليموت فيه؟ ليته توفي في الثلاثين منه، الآن لا بد من تغيير جدول الرواتب، وإعادة الحساب، لاقتطاع عشرة أيام من راتبه.

ويصمت، ثم يضيف:

. كان . الله يرحمه . صديقك، أنت قم بتغيير الجدول.

. ما هو صديقي ولا هو صديقك، ما كان له صديق.

ويعلق المحاسب:

ـ الحقيقة، نحن هنا كلنا في المديرية لا أحد صديق أحد، حتى كل واحد فينا ما هو صديق نفسه، الله يتولانا برحمته.

*

ويصل الخبر إلى حسان، زميله في المكتب نفسه.

لا يمكن أن أكون أنا السبب، ثم، الأعمار مقدرة، وهي بيد الله، خجل كثيراً عندما نبهته على الخطأ الذي وقع فيه، هو أكبر مني، وأقدم، وهو الذي علمني أصول تسجيل الكتب في دفتر الصادر والوارد وإعطائها الرقم والتاريخ قبل إرسالها إلى المدير أو الجهات المعنية، لكن لا أعرف كيف وقع في هذا الخطأ، وجَّه الكتاب إلى المدير، ووضعه في البريد المستعجل، ونسي وضع الرقم والتاريخ، لولا تدقيقي، لكان المدير وجه إليه عقوبة، على كل حال، لا يمكن أن يكون تنبيهي له سبب موته.

الحقيقة، في الأيام الأخيرة كان شارد الذهن، لا يستطيع التركيز، كان مشغولاً باستكمال الأوراق الرسمية المطلوبة من أجل التقاعد.

*

ويصل الخبر إلى لجنة الشراء الجديدة، وكان محمد عبد الجليل الأحمد عضواً في اللجنة القديمة، وقبل يومين فقط سيق عدنان رئيس اللجنة السابق إلى السجن بتهمة التزوير وقبض رشاوي، فيقول كريم عضو اللجنة الجديدة لزميله ياسر:

. محمد عبد الجليل ذو سمعة طيبة، وليس موضع اتهام، ولكن في التحقيق قد يتهمه رئيس اللجنة السابق، ليخفف عن نفسه العقوبة.

ويرد عليه زميله ياسر:

. تقصد: كان سبب موته إلقاء القبض على رئيس اللجنة؟

ويرد كريم مشككا:

ـ محمد عبد الجليل، الله يرحمه، رجل حساس، وحاد المزاج وعصبي، ولكنه ساكت طول الوقت، لا يتكلم، ومن المحتمل أن يكون خوفه سبب موته.

– ٣ –

ويبلغ الخبر ابنته سهى، فيقول لها زوجها حامد:

ـ يا سهى، أرجوك، لا تغضبي مني، سأقول لك بصراحة: أنت سبب موت والدك.

تنفث دخان سيكارتها، ترفع رأسها، ترد مستنكرة:

. أنا؟

ويرد الزوج:

. نعم، أنت قلت له: ضاقت بنا الدار، أصبح عندنا أربعة أولاد، سنبيع الدار، وأنت تبيع سيارتك، وتعطينا ثمنها لشراء دار أوسع.

تعلق الزوجة:

. هذا من حقنا، وهو كلام عادي، ما فيه أي إزعاج، وهو والدي.

ويضيف الزوج:

. يا سهى، أنت قلت له هذا قبل شهر، وأعدته عليه قبل يومين، في زيارتنا الأخيرة، وقلت له بالضبط: "الشهر القادم تتقاعد، ولن تحتاج إلى السيارة، وراتبك التقاعدي لا يغطي مصاريف السيارة".

تعلق الزوجة:

. نعم، قلت هذا، وأمي وافقت على الفكرة، وأيدتني.

وتصمت ثم تضيف:

ـ الحقيقة والدي، الله يرحمه، عنيد، ولا يحب التجديد، طبعاً، الآن، لن أقبل بالسيارة حصتي من الميراث، لي حصة في الشقة.

الزوج يعلق:

. انتظري الرجل ما يزال مسجى، ولم يدفن، الكلام على الميراث سابق لأوانه.

. لأ، لا تقل هذا، الموت حق، والوراثة حلال.

حامد يخرج إلى الشرفة، ليدخن سيكارة.

زوجته تلحق به، وهي تقول:

. لماذا هربت؟ لا تريد سماع كلامي؟ هل تظن نفسك تحب أبي أكثر مني؟

*

وتتصل سهى بأختها نهى:

ـ نهى، أنا آسفة، لا أريد الزيادة في حزنك على أبي، لكن أنا مضطرة للقول: مات أبي وفي قلبه حسرة، دعانا لزيارته قبل موته بيومين، وكأنه أراد توديعنا، وأنت ما جئت، كان يحس بغيابك، أنت البنت الكبيرة، طوال السهرة، وهو ساكت لا يتكلم، عيونه على اللوحة المعلقة على الجدار، اللوحة التي رسمها أيام الشباب.

وترد نهى على أختها:

ـ أرجوك يانهى، لا تتكلمي معي بهذه اللهجة، ولا تنسي، في آخر لقاء لنا عند أبي، قبل شهر، لا تنسي، وتذكري ما قلت له.

. ماذا قلت له؟

. هل نسيت؟

. ما قلت أي شيء.

. عرضت عليه بيع السيارة.

سهى ترد بقسوة:

. وأنا سأذكرك، أنت قلت له في تلك الزيارة: هذه الدار أصبحت كبيرة عليك، وما فيها غير أنت وأمي، وفيها خمس غرف، واقترحت أنت عليه بيعها، وشراء دار صغيرة من غرفتين.

وترد نهى بحدة:

. وأنت عرضت عليه بيع السيارة.

سهى تضحك ثم تضيف:

. أنا كنت أمزح معه، وهو ما علَّق بشيء.

. أنا أعرف، أبي لا يتكلم، لكنه يحترق من الداخل.

ـ ماشاء الله، إذا كنت أنت الكبيرة، فهذا لا يعني معرفتك بأبي أكثر مني، ولا تنسي، هو والدي مثل ما هو والدك، وأنا أصغر منك، وأنا أعرف، صححي أفكارك، أبي يحبني، ولا يغضب مني، أنا آخر العنقود.

نهى تعلق:

ـ أي عنقود هذا؟ ما فيه غير أنا وأنت، قولي: ثمرتين في عود واحد.

ترد سهى:

. الله يقطع العود والشجرة على ما أثمرت.

*

خليل يسأل زوجته نهى:

ـ نبرتك في الرد على أختك تدل على اختلاف، وما هو الوقت المناسب الآن للاختلاف.

نهى تعلق بغضب:

. زارت أبي قبل يومين، وقالت طول السهرة كان لا يتكلم، عيونه على اللوحة في غرفة الجلوس، أنا أعرف هذه طبيعة أبي، وهي فسرتها بغضبه مني، ما هذا الفهم الغبي؟

ـ الله يرحمه، عمي صبور وهادئ، وفنان، أنا لا أنسى حديثه عن محاولاته في الرسم، ولكن الوظيفة أخذت كل وقته، وقتلت فيه هذه الموهبة، صدقيني أنا كنت سأطلب من والدك الله يرحمه أن يهديني تلك اللوحة المعلقة على الجدار في غرفة الجلوس.

تعلق الزوجة:

ـ أنا لو أهداني إياها ما كنت أخذتها، أنت متواضع، وتفكيرك طفولي، لوحة، سخيفة، ما فيها أي شيء، سماء وماء، لا سفينة ولا

شراع ولا جزيرة، لا أعرف كيف سمحت أمي له بتعليقها في غرفة الجلوس.

وتصمت تضيف، ساخرة:

ـ اطمئن، أنا سآخذها من أمي، سأجعلها حصتي من الميراث، وأهديك إياها، لكن لن أسمح لك بتعليقها في أي غرفة، خذها إلى مكتبك في الوظيفة، ولا تفك الإطار، ولا تحلم بوجود كنز وراء اللوحة.

. أي كنز يا نهى، أنا

تقاطعه:

ـ أنت يبدو لي ما سمعت بقصة الخادمة التي طلبت صورة سيدها ذكرى بعد وفاته.

. لأ، ما سمعت.

ـ اسمع، سأحكي لك، خادمة توفي سيدها، فجاء الورثة وأخذوا كل شيء، ثم سألوها ماذا تريد أن تأخذ، فقالت تريد صورة سيدها، التي لم يفطن إليها أحد، فسخروا منها، وتخلوا لها عنها، وذات يوم، وبينما هي تمسح الغبار عن زجاجها وقعت اللوحة وانكسر الزجاج، وتناثرت أوراق نقدية كان سيدها يخفيها خلف الصورة.

وتصمت ثم تعلق:

. لكن لا تحلم، خلف لوحة والدي لا يوجد غير الغبار.

جاره أبو صبحي يقول لزوجته:

. مسكين جارنا، الله يرحمه، هل عرفت سبب وفاته؟

وترد الزوجة:

. جلطة دماغية، هكذا قال الطبيب.

. ولكن ما سبب الجلطة؟

. التقدم بالعمر والشحوم والضغط.

ـ لأ، الرجل بعد شهر يبلغ الستين، وهذه السن لا تعني الشيخوخة، في مثل عمره يمكنه الزواج والإنجاب.

الزوجة تقاطعه وتتكلم بصوت عال:

. ماذا تقصد؟

يرد:

ـ والله لا أقصد أي شيء، أنا بعدك لن أتزوج، على كل حال، في الزيارة الأخيرة، يوم أمس، قبل موته الله يرحمه بيوم واخد، تذكري، طلب مني السهر في البلكون، وكان في الجو نسمة باردة، والسماء ملبدة بالغيوم، نحن في أواخر نيسان، لكن أصر على القعود في البلكون، كنا نلعب بالشطرنج، ثم أشفقت عليه من النسمة الباردة، ودخلنا إلى الغرفة، كان لا يستطيع التركيز، غلبته مرتين، على غير العادة.

. وهل تكلم بشيء.

. هذه هي عادته، لم يتكلم بشيء.

ويصمت ثم يضيف:

. هل خسارته مرتين سببت له الجلطة؟ أو نسمة البرد؟

. لا، هذا غير معقول.

ـ ولكن هو حساس، وعصبي، صدقيني لا أعرف كيف يلعب بالشطرنج وهو عصبي وحاد المزاج، لا يسامح نفسه إذا هزم، لا أعرف كيف هزمته أنا تلك الليلة مرتين، الله يرحمه.

وتعلق الزوجة:

ـ الحقيقة جارنا أبو حيد مثل طفل صغير، هل تذكر في ليلتها كيف جاءت ابنتنا سميرة وطلبت مني مساعدتها على رسم لوحة، فقلت لها أنت: اطلبي من عمك أبو وحيد، وركضت نحوه وناولته صفحة ورق مقوى وقالت له: عمي، ارسم لي لوحة فنية؟ هل تتذكر ماذا فعل؟

. نعم، الله يرحمه، مرر القلم فوق الصفحة، وقال لها: هذه لوحة، تأملتها، لا شيء فيها سوى خط يمتد بالعرض من أول الصفحة إلى آخرها، سألته: ماهذا؟ أجابها: هنا فوق السماء، وهنا تحت الأرض، تأملت سميرة الخط قليلاً، ثم قالت:"صح، هذا خط الأفق"، ثم أضافت:"حلوة، كثير حلوة، ياعمي، تشبه اللوحة عندك في غرفة الجلوس، حلوة يا عمي، حلوة كثير..أنت رسمتها؟"، وأجابها بفرح: نعم، أنا رسمتها، واحتضنها، وقبلها في جبينها، ثم سألته: لكن لوحتك ياعمي ما فيها إنسان، لماذا؟ وتدخلت أنا مازحاً وقلت: "الإنسان مختبئ وراء اللوحة، في الخلف"، ضحكت وقالت لي: " لأ، هذا الإنسان غير موجود، لو هو موجود كان ظهر في اللوحة"، وينهض أبو وحيد، يحملها ويدور

بها وهو يهتف: " ما فهم اللوحة أحد، من عشرين سنة واللوحة معلقة على الجدار، ومافهمها أحد غيرك يا سميرة، حتى ابنتي نهى ما فهمت اللوحة، ولا سهى، أنت وحدك فهمت اللوحة، أنا ما عندي غير بنتين، وانت ابنتي الثالثة"، ثم قال لها: "حبيبتي، الإنسان الذي سألت عنه، ما ولد حتى الآن، لذلك ما ظهر في اللوحة"، وصمت، ثم قال لها: " في الصباح سأعطيك اللوحة، أنت أحق بها"، وبكل عفوية سألته: "لكن عمي، كيف بابا يناديك أبو وحيد؟ ما عندك ابن اسمه وحيد"، ويرد: "لأ، يا بنتي، ما عندي ابن اسمه وحيد، لم يرزقني الله بغير نهى وسهى، الحمد لله، والحمد لله لأنه لم يرزقني بولد"، ويصمت، كأنه كان يود أن يقول شيئاً، ولكنه صمت.

وتضيف الزوجة:

. الحقيقة، أنا قلت لا بد من وجود شيء في حياة أبو وحيد، الله يرحمه، في تلك السهرة كان فيه شيء غريب، حتى لهجته وصوته.

– ٥ –

في الطريق إلى بيت أبو وحيد، يقول الدكتور هشام لأمه، وهو يقود سيارته:

. المسكين، والله حزنت عليه، مات في عز الرجولة، الله يرحمه.

أمه تعلق:

ـ لا تحزن عليه، مات واستراح، كان حاد المزاج، الله يرحمه، احزن على أختك أم وحيد، ترملت في عز الشباب.

هشام يعلق:

. وهل سن الأربعين يا أمي سن الشباب؟

ترد:

. أقصد فيها يبدأ نضج المرأة ووعيها لقيمة الحياة.

وترسل زفرة ثم تتكلم:

. حظ بنتي مثل حظي، أنا ترملت في الثلاثين، وهي ترملت في الأربعين، شقيت حتى ربيتكم، من قبل كان الذنب ذنب والدي، زوجني وعمري أقل من عشرين سنة، ومن بعدها كان ذنبي أنا، كررت الخطأ، زوجت أختك في العشرين لرجل في الثانية والأربعين، بينها وبينه أكثر من عشرين سنة.

ويعلق الدكتور هشام:

ـ يا أمي، الأعمار مقسومة، لا يموت الإنسان إلا بعد استيفاء عمره.

ويصمت، ثم يضيف:

ـ والآن وصلنا إلى بيت أختي، أرجوك لا تقولي هذا الكلام أمامها، لا تزيدي من حزن بنتك.

. لا توصيني، هي بنتي، وأنا أعرفها، لن تكون أنت أحن عليها مني أنا، أنا أم وامرأة وأعرف، وأعرف زوج ابنتي، أكثر منك.

هشام يتكلم:

ـ أعرفك، ما أحببت أي صهر من أصهارك، مع أن الأم من عادتها أن تحب صهرها، والله أبو وحيد رجل طيب، وعاقل، ولا يتكلم.

ـ لكنه عصبي، وحاد المزاج، وسكوته مخيف، في المثل: لا تخف إلا من المياه الراكدة.

ـ على كل حال الرجل صار عند ربه، ولا يجوز عليه غير الرحمة.

– ٦ –

وتصل أمها وأخوها الطبيب هشام.

أخوها يكشف عن أبو وحيد، ينظر في ساعة يده، ثم يقول لها:

ـ عليه رحمة الله، الساعة الآن السابعة، توفي على الأقل قبل ثلاث ساعات، حوالي الرابعة.

تصيح الزوجة:

ـ ويلي، أنا المسؤولة، نمت ثلاث ساعات إلى جوارك، وما أحسست! سامحني يا أبو وحيد.

وتكب عليه، وهي تبكي.

تضمها أمها إليها، أخوها يغطى وجه الميت، ثم يقول لها:

ـ أنا في التاسعة سأمر بمديرية الصحة، وأحضر شهادة الوفاة، خبري أنت إخوته وأصحابه، ليجهزوا أمور الدفن، ولا تنسي، خبري المديرية، محل عمله.

أم وحيد تستند إلى كتف أمها، وهي تتحدث إلى أخيها الطبيب:

ـ لو أحسست، كنت خبرتك، وكنا أسعفناه...سامحني يا أبو وحيد، أنا قصرت معك.

أخوها يقول لها:

ـ هذا قدره، انتهى عمره، سلِّمي أمرك لله، ولو جئت أنا ما كان يمكنني فعل أي شيء.

أخوها يغادر، أمها تقول لها:

. تعالي معي إلى غرفة الجلوس، احكي لي ماذا جرى معه ليلة أمس.

تمسح دموعها، وهي تسير إلى غرفة الجلوس:

. لا شيء، أبداً، كل شيء عادي، سهرنا عند جارنا أبو صبحي، أنا وهو، ولعب مع جارنا بالشطرنج، وعند الحادية عشرة رجعنا إلى البيت، كنا في غاية السرور، طلب مني تحضير العشاء، على غير عادته، من عادته لا طعام بعد الساعة الثامنة.

وتعود إلى البكاء، وهي تقول:

. أحس بالذنب، زوجي إلى جواري في الفراش جثة هامدة، وأنا لا أحس، لو سقيته نقطة ماء، أنا مذنبة، سامحني يا أبو وحيد، العشاء هو السبب.

الأم تعلق:

ـ لا العشاء، ولا أنت، أنا أعرف، من قبل عنده زيادة في نسبة الشحوم، ويعاني من ارتفاع الضغط، وهو عصبي، وحاد المزاج، على كل حال، هل تخاصم مع أحد في النهار، أو قبل يوم أو يومين؟

ـ لا، لا، أبداً، والله، يا أمي، قبل يومين زارتنا ابنتي نهى، وكنا مسرورين، وفرح بها وبزوجها، وهو يتابع استكمال أوراقه الرسمية، حتى يتقاعد الشهر القادم، وأنا أعرف، هو فرح بالتقاعد، سيرتاح من الوظيفة والدوام، سيعود إلى الرسم، هوايته أيام الشباب، كان دوماً يقول لي: إذا تقاعدت فسوف أعود إلى هوايتي في الرسم، ويشير إلى هذه اللوحة المعلقة هنا، وما فيها أي شيء، عيونه كانت دوماً عليه، كأنه يريد الصعود إلى السماء، كنت أقول في نفسي هذا الرجل سيموت في يوم من الأيام في البحر، عيونه دائماً معلقة باللوحة.

. وهل نام بعد العشاء؟

ـ لا، سهرنا، لكن بصراحة، أفرط في الطعام، وبالغ في السهر، وفي شرب القهوة، ما تركني أنام، تعب، وأتعبني، كأنه كان في سفر ورجع إلى البيت، كأنه مراهق ابن خمس عشرة سنة، الحقيقة، أحس

بالذنب، أنا أطعته، في كل شيء، وطاوعته، وهو بالغ في كل شيء، كأنه كان يودع الدنيا.

تلقي بنفسها في مقعد عريض، تمسح دموعها، ترسل زفرة، ثم تتكلم:

ـ الله يرحمك، يا أبو وحيد، كانت ليلة باردة، نحن في أواخر نيسان، والجو متقلِّب، وفي ليلتها ما عاد يريد النوم، وأنا أطعته، عشاء وقهوة وسكائر، ترك التدخين من سنتين، لكن ليلتها دخن عشر سكائر، يا إلهي، والله أنا مذنبة، لأني أطعته، دخنت معه، كانت ليلة باردة، مثلما قلت لك، أبرقت وأرعدت وتزلزلت الأرض، ونزل مطر غزير، أغرق الدنيا، وهجعنا إلى الفراش، لننام، غفونا أقل من عشر دقائق، نهض، أيقظني، قال لي اسمعي، وبدأ يحكي لي عن منام رآه، أضحكني كثيراً.

وتقول أمها:

. احكي لي عن هذا المنام.

ـ منام مضحك، كيف سأحكيه لك الآن، إذا حكيته لا بد من الضحك، ونفسي لا تشتهي الضحك، كيف أضحك، والرجل هناك جثة.

. احكي، إذا ما ضحكت اليوم، فلا بد من الضحك في يوم غد، هذه هي الدنيا، الله يرحمه، هو اليوم، ونحن بكرة.

أم وحيد تتكلم:

ـ حكى لي، رآى نفسه وقد دخل إلى مرحاض، هو مجرد غرفة إسمنتية صغيرة مسبقة الصنع موجودة في الفلاة، في الطبيعة، لا في المدينة ولا في داخل شقة، وتغوط، وأكد لي أنه تغوط كثيراً، تغوط كمية كبيرة، غير متوقعة، ولافتة للنظر، والغرفة صغيرة، مفتوحة، لا باب لها، ثم جاء المدير ومعاون المدير، وبعض أصدقائه، أو أحد أصدقائه، لا يعرف من هو، لعله أحد اصدقائه في المرحلة الثانوية، هكذا قال، ووقفوا جميعاً ورأوه وهو يتغوط، لم يروا عورته، بل رأوا الغائط، حكى لي هذا وأخذ يضحك، ويضحك.

أم وحيد تبكي، تجهش في البكاء، تضحك، وهي تبكي، تكفكف دموعها، تخنق ضحكتها، تتكلم:

ـ ثم نهض من السرير، جافاه النوم، انتصب أمام النافذة، يريد ملء رئتيه بالهواء، وقدح البرق وقعقع الرعد.

تصمت، ثم تجهش في البكاء، تتكلم وصوتها يتقطع:

ـ لو رأيته ليلتها لقلت: جن الرجل، ركض إلى غرفة الجلوس، وأحضر اللوحة، اللوحة التي كان دائماً يقعد يتأملها، وأعطاني إياها، وقال: في الصباح الباكر، أعطي اللوحة لبنت الجار أبو محمود، لابنته سميرة، ما أحد فهم اللوحة غيرها، ثم خلع قميصه، خلع سرواله، وركض إلى الشرفة، وهو عار تماماً، المطر يغسله من رأسه حتى قدميه، والبرق يقدح، حملت ملاءة السرير، حاولت لفه بها، لكنه صاح بي: ارجعي، وإلا رميت نفسي من الشرفة، وتعرفين، نحن في الدور الرابع، والأخير،

الشرفة عندنا مفتوحة على السماء، لا سقف لها، والمطر يسح على جسمه، كأن كل مطر السماء ينصب عليه.

. وبعدها؟

. تركته، وذهبت إلى الفراش، تغطيت باللحاف، وأنا أنتظر حتى يهدأ، ويعود إليه عقله، إذا كلمته زاد جنونه، أعرف، لذلك تركته، والله يا أمي، جن، حقيقة، جن.

الأم تتكلم بعد طول صمت:

. هذا المنام يدل على وجود شيء أزعجه، لا بد، هناك شيء ما أزعجه في النهار، والليلة التي أمضاها ما كانت عن سرور، كانت عن قهر وعذاب، عن انتقام من شيء في داخله، هل حكى لك عن عمله؟ عن أصحابه؟

أم وحيد ترد:

. لا أعرف، نعم، هناك شيء يقهره دائماً، لكن لا أعرف ما هو، وهو لا يحكي لي، وبصراحة لم يبق عنده أصحاب ولا أصدقاء، كان عنده أصدقاء يزورهم دائماً، ويسهر عندهم، هذا من زمان، لكن لم يبق عنده أي صاحب، ما عاد يزوره أحد، حتى إخوته، لا أحد منهم يزوره، ولا هو يزور أي شخص، لا أعرف لماذا؟

. هكذا هي الحياة يا بنتي، الإنسان في الشباب عنده وقت وفراغ، ويكون عنده أصدقاء، ولكن تزداد الهموم والمسؤوليات، وينشغل كل واحد بنفسه، ولا يبقى هناك أحد.

أم وحيد تسأل:

. لكن كيف عرفت بوجود شيء يقهره؟

. المنام، يا بنتي.

. ما فهمت؟

ـ وجود المرحاض في الفلاة، يعني الهروب من الناس، المرحاض مجرد غرفة صغيرة يعني العزلة عن العالم، والمرحاض من غير باب يعني الرغبة في الحرية، والتغوط يعني التخلص من كل ما هو مزعج، أمي، جدتك، الله يرحمها، كانت تقول عند خروجها من المرحاض: تخلصنا من الضشمان، وكنت لا أعرف معنى الكلمة، وذات يوم سألتها، قالت لي: الضشمان باللغة التركية يعني العدو.

أم وحيد تضحك، تعلق:

. والله يا أمي أنت فاجأتني، ما كنت أعرف، كيف صار عندك علم بتفسير المنامات؟

الأم تضحك، وتعلق:

ـ ما هو علم يا بنتي، هو نوع من الفهم والخبرة بالحياة، وصدقت، ما كنت أعرفه من قبل، لكن مع الأيام صار عندي نوع من العلم، وما هو كما قلت لك بالعلم، وطبعاً لا أستطيع دائماً فهم المنام، أحياناً يكون المنام لا معنى له.

أم وحيد تمسح دموعها، وتسأل:

. وما معنى مجيء المدير ومعاونه وبعض الأصدقاء؟

ـ سؤالك في موضعه، وهذا هو المهم في هذا المنام، هو يريد الانتقام منهم، هم الذين أزعجوه، هم الأعداء، يريد أن يروا الغائط، هو انتصار منه عليهم.

البنت تسأل:

. لكن هذا فضيحة.

. لأ، أنت قلت إنهم ما رأوا عورته.

أم وحيد تضع إصبعها على صدغها، تحاول أن تتذكر، تتكلم:

. نعم، نعم، هو قال: لم يروا عورته.

. رائع، هذا هو ختام المنام، رأوا الغائط، لكن لم يروا عورته، أي لم يخجل، ولم ينكشف، ولم ينالوا منه، بل هو الذي نال منهم، أراهم الغائط.

أم وحيد تجهش في البكاء:

ـ الحمد لله أنا ماكنت في المنام معهم، هذا يعني أنه كان يحبني، وغير مزعوج مني.

تنهض، تسرع إلى الداخل حيث أبو وحيد مسجى، تكب عليه وهي تبكي:

ـ حبيبي أبو وحيد، الله يرحمك، كم أنت معذب، وأنا لا أعرف، الله يرحمك، سامحني، سامحني، أرجوك، الله يرحمك يا أبو وحيد.

أمها تلحق بها، تحاول رفعها عن جثمان زوجها.

أم وحيد، ترفع رأسها فجأة، تلتفت إلى أمها تقول لها بعصبية ونزق:

. أمي، أرجوك قولي ما حقيقة المنام.

. والله كما قلت لك، هذا هو فهمي أنا.

أم وحيد تصيح:

. لأ، أمي، لأ، فهمك غير صحيح، أنا الآن فهمت المنام، الغرفة الإسمنتية هي القبر، وأبو وحيد فيها وحده، يعني موته، وحضور المدير والمعاون والأصدقاء ورؤية الغائط يعني رؤية أبو وحيد وهو ميت والشماتة به، وخروج الغائط يعني خروج الروح، لا تؤاخذيني، هذا خروج وهذا خروج.

الأم تقاطعها:

. لا يا بنتي الله يرضى عليك، هذا الكلام غير صحيح، المنام له علاقة بالماضي ولا علاقة له بالمستقبل، وعلى كل حال، العلم كله عند الله، ولا يجوز القول خروج الغائط مثل خروج الروح، هذا كفر، الله يرضى عليك يا بنتي، حافظي على هدوئك، بعد قليل يأتي الناس، وأنت في موقف حزن، والمثل يقول: يا حزين خليك فطين.

البنت تجهش في البكاء، تكب بوجهها على جثمان أبو وحيد، وهي تنشج وتصيح:

ـ لأ، لأ، المنام يعني موت أبو وحيد، وهذا تفسير المنام، والآن أبو وحيد ميت، وبعد قليل سيأتي الناس، لن أسمح لهم بالدخول،

سأطردهم كلهم، حتى إخوته، حتى بناته، لن أسمح لهم بالشماتة فيه، كلهم أعداء، كلهم أعداء، الآن فهمت كل شيء، وعرفت، الله يرحمك يا أبو وحيد، من حقك أن تجن، والله ما كنت فاهمة أي شيء، سامحني أرجوك.

- ٧ -

في المساء ترجع سميرة من المدرسة، تحمل قطعة ورق وتقول لأمها:

. أريد بكرة في الصباح زيارة قبر العم أبو وحيد، بكرة عطلة؟

الأم تسأل بهدوء:

. ولماذا؟

. سأزوره وأضع على قبره هذه الصورة، انظري: في الوسط خط، هو الأفق، وهذا إنسان، انظري، هذا إنسان، له رأس، أنا رسمته، رسمت يديه وقدميه، سأضع الصورة على قبر عمي أبو وحيد، وسأقول له: انظر، ولد الإنسان.

القميص الوردي

هو آذار، لا يستقر على حال، يوم غيم وأمطار، ويوم شمس دافئة، بل ساعة صحو وساعة مطر. خرج المصلون من صلاة الجمعة والشمس ساطعة، ولكن ما لبثت أن غامت السماء، وعمت دكنة قاتمة، وهبت ريح عاصفة، وقعقع الرعد، وانسكب المطر. منذر يتناول الغداء مع زوجته وابنهما سمير حوالي الساعة الثانية، ثم يرتدي بدلته، ينتقي ربطة عنق متميزة، زوجته سناء تسأله:

. إلى أين في هذا الجو العاصف؟

ـ إلى موعدي الثابت، الساعة الثالثة كل يوم جمعة، لقاء الصحب في المقهى السياحي.

. ولكن اليوم ليس كسائر الأيام، كيف ستخرج في هذا الجو؟

. المظلة موجودة، وسيارات الأجرة كثيرة.

. ألا يمكن الغياب عن هذا الموعد الثابت مرة واحدة؟

. هم أصدقاء العمر، ونحن لا نلتقي إلا مرة واحدة في الأسبوع.

. منذر، نحن زوجان من خمس سنين، ابننا صار عمره أربع سنوات، خمس سنوات لم تتخلّف عن هذا اللقاء، في الظروف كلها، أريد أن أعرف؟

ـ أنت عرفت أصدقائي كلهم، وعندك أرقام هواتفهم الجوالة، وكما قلت، خمس سنوات لم أتخلف مرة عن الموعد، وهذا يزيد من الاطمئنان.

أدركت أنه لا جدوى من الحوار، قالت له:

ـ اذهب، ولكن أرجوك، لا تتأخر، لا تنس، أنا سأبقى في البيت وحدي.

*

في الركن المعهود من المقهى السياحي وجد بهجت وحده.

الساعة الثالثة والنصف والمطر ينهمر غزيراً، والسماء سوداء معتمة، والسيل يتدفق في الشوارع أنهراً، ولا أحد من الصحب يأتي، وليس في المقهى إلا عدد قليل من الرواد، أغلبهم من النزلاء في الفندق، لن ينتظر أكثر، احتسى قهوته بسرعة، اعتذر إلى بهجت، وخرج. المطر ما يزال ينهمر غزيراً، فتح المظلة وسار نحو محطة القطار.

المبنى الخامس على الرصيف الأيمن بعد إشارة المرور، في قبو العمارة. بحث عن محل يشتري منه شيئاً ما، ثمة محل لبيع التحف والهدايا البرونزية والكريستالية، محل لبيع الحلويات، وقف أمامه، تردد، ثم مشى، محل لبيع الحقائب النسائية، محل لبيع الألبسة النسائية الداخلية، دخل إلى المحل، البائع عجوز، على عينيه نظارة طبية، عدسة العين اليسرى متشققة، يبدو أنها وقعت، فانكسرت، ولكنها لم تسقط، ينظر في الرفوف، البائع يسأله بصوت جاف:

. طلباتك؟

. قميص نوم نسائي، داخلي.

. العمر؟

. أربعون سنة.

. اللون؟

يتردد يحار، البائع العجوز يتكلم:

. الأبيض للأم، الوردي للعشيقة، الأسود للزوجة، أو إذا شئت الأبيض للسمراء، والأسود للبيضاء، والوردي للجميع.

تحمرُّ وجنتاه، ترتعش أنامله، البائع العجوز يتابع كلامه:

. أنا أنصح لك بالوردي، يوم أمس بمناسبة عيد الأم بعت كل القمصان الوردية، لم يبق عندي سوى قميص واحد، كل الأبناء يريدون أن يعيدوا الشباب لأمهاتهم، أحدهم قال لي: "أنا أشتري القميص الوردي لأمي، كي يبتهج أبي".

*

يوم أمس كانت الشمس ساطعة، وكان الجو دافئاً.

هو وزوجته وابنهما سمير في الحديقة العامة على مقعد خشبي عريض، أمامهما بركة هادئة تسبح على سطحها بطات بيض، منذر وسناء ينعمان بالجو الدافئ، وسمير أمامهما يركض مرحاً. على مقعد مجاور تقعد سيدة متقدمة في العمر، في ثوب أسود، تفتح حقيبتها وتمد يدها بقطعة سكر إلى سمير وهي تناديه:

. تعال، حبيبي.

سمير يمضي نحوها تناوله قطعة سكر، تضعه في حضنها، وتأخذ في تقبيله، ثم تحمله وتأتي به إليهما، وهي تقول:

. الله يحميه.

سناء تقول لها:

. تفضلي، اقعدي معنا.

وبعفوية تقعد إلى جوار سناء، وهي تتكلم:

. أنا درّيّة، بيتي هنا في شارع المحطة، البناء الخامس على الرصيف الأيمن بعد إشارة المرور، شقتي هي قبو في العمارة، رطبة وباردة، أستغل مثل هذه الأيام الجميلة، ألجأ إلى الحديقة، أستمتع فيها بالشمس الدافئة.

تسألها سناء:

. وفي الشتاء؟.

. ماذا أقول لك؟ الأمر لا يمكن تصوره، على كل حال الشتاء انتهى، نحن في أواخر آذار، نيسان أرحم من آذار، ومع أيار يبدأ الحر، وتصبح شقتي باردة.

ويمر بائع غزل البنات فتشتري أربع قطع، يحاول منذر دفع ثمنها فتأبى، يعلق:

. ولكنه للأطفال، ليس لنا نحن الكبار.

. أنا أحبه كثيراً، يذوب في الفم كأنه العسل.

وتحمل سمير، تضعه في حضنها:

. جميل، ماشاء الله، يشبه والده، إذا كانت المرأة تحب زوجها جاء الولد يشبه والده.

وتدور أحاديث طريفة، ثم تعتذر إليهما، وتنهض وهي تقول:

. تسرني زيارتكم، أنا أعيش وحدي، كما قلت لكم، شقتي في قبو بالمبنى الخامس، على الرصيف الأيمن بعد إشارة المرور، أنا لا أزور، ولا أُزار، أرحب بكم في أي وقت.

وهي تبتعد تشير بيدها مودعة.

بعد مغادرتها تلتفت سناء إلى زوجها لتقول:

. كان الله في عونها، ليس لها ولد لتزوره أو يزورها.

ويضيف الزوج:

. ربما لها أولاد، ولا يسألون عنها، أو لعلهم سافروا.

. من الصعب عيش المرأة وحدها، لا تجد غير الحديقة لتمضي وقتها فيها.

وتصمت، ثم تعلق:

. ما رأيك في زيارتها، نعتبرها مثل أمنا، اليوم في الصباح زرنا أمك بمناسبة عيد الأم وتناولنا الإفطار عندها، ثم تناولنا الغداء عند أمي، وبعد ساعة نشتري لها هدية ونزورها، أو نشتري طعاماً جاهزاً ونتناول العشاء عندها.

. اقتراحك جيد، سنشتري العشاء الجاهز، لكن عندنا أم أخرى سنتعشى عندها.

تنظر إليه مدهوشة، تسأل:

. أمي وأمك ودرية ثلاث، من هي الأم الرابعة؟

يضع يده وراء ظهرها، يلف عنقها، يميل عليها، يهمس في أذنها:

. نسيت نفسك؟ أنت..

تضحك، تعلق:

. هذا أجمل يوم عطلة، ارتحنا حقيقة من الوظيفة، الذي اخترع فكرة عيد الأم ذكي، وهذه السنة صادف يوم الخميس، صار عندنا ثلاثة أيام عطلة: الخميس والجمعة والسبت.

*

البائع العجوز يقول له:

. هذا القميص الوردي يناسب سيدة في الأربعين، ليس عندي غيره، هل أعطيك أبيض أو أسود بمقاس أصغر؟

منذر يتردد، ثم يتكلم:

. هو مناسب.

ـ لا تخجل، القميص ماهو لزوجتك، أنت دون الثلاثين، وزوجتك ما هي في الأربعين، أنت تريد القميص لامرأة ثانية، قل لي

هات القميص الوردي ولا تخجل، استمتع بشبابك، غداً تصبح مثلي وتندم، لا تفوِّت أي فرصة.

البائع العجوز يلف القميص بجريدة قديمة، وهو يقول:

ـ لم يبق عندي ورق فاخر، أمس في عيد الأم نفد الورق الفاخر والأكياس الملونة، الورق الفاخر غير مهم، المهم هو الغاية من الهدية، لا تقدم لها الهدية ملفوفة، ارم الجريدة فوراً وافتح القميص هكذا أمامها، افرده، حتى تفاجئها، قل لها: "خذي جرِّبيه"، أنت شاب ولا تحتاج إلى من يعلمك، لا تخجل، ليتني أرجع شاباً مثلك.

البائع العجوز يطلب ثمناً لم يكن منذر يتوقعه، يدرك أن العجوز يستغل موقفه، فيدفع له المبلغ الذي طلبه، يحمل الهدية ويخرج.

*

أنامله ترتعش، يحس ببرودة في أطرافه، المطر ينهمر غزيراً، المظلة لا تكاد ترد المطر عنه، يعصف الهواء، فتنقلب المظلة، يجذبها، يشدها إليه، تنكسر، يرميها ويمشي تحت المطر. الريح تصفعه، السيل يجري في الشارع كالنهر، يغمر الرصيف، السيل بما فيه من طين ووحل يخترق الحذاء، قدماه تبتلان تغوصان في حذاء أثقله السيل. يفكر في إيقاف سيارة أجرة والعودة إلى البيت، يقف، السيارت تغوص في السيل، ما من سيارة أجرة.

أخطأت، لم يكن من اللائق أن تشتري لها في الزيارة الأولى قميصاً داخلياً، هذا يعني أنك تقصدها هي بالذات، كان الواجب أن

تشتري لها هدية خاصة بالبيت، كان من الأفضل أن تشتري لها مزهرية، أو شمعداناً، أو باقة زهر، لكن لتكن ضربتك مباشرة وواضحة، كما قال لك العجوز، لماذا اللف والدوران، ما معنى أن تعيش وحدها، هذه إشارة، ومامعنى أن تحمل ابنك وتقبّله، ثم تقول إنه يشبه والده، هذا تعبير عن إعجابها بك، هذه إشارة ثانية، لا شك أنها في ظمأ إلى رجل، وأكدت أن شقتها باردة، هذا يعني أنها بحاجة إلى رجل يدفئها، وطوال الجلسة إلى جانب زوجتك كانت عيناها مثبتتين عليك، لم ترفع نظرها عنك، وعندما ودَّعتْ ومشت التفتت وأشارت بيدها، كانت تشير إليك، ولا تنس أنها كررت ذكر عنوان بيتها مرتين، وقد ذكرته بالتفصيل.

امرأة مثلها في الأربعين ستجد عندها ما هو مختلف عما هو عند زوجتك، وهي من غير شك خبيرة، أنا أحب المرأة الناضجة، المكتملة، بدلاً من أن أُعنى أنا بها، ستُعنى هي بي، ستمنحني وتُعطيني، وهذه هي حقيقة ما أنا محتاج إليه، المرأة في مثل عمرها هي المرأة القادرة على منح الرجل، هي القادرة على معاملته كما تعامل الأم طفلها، رأيت هذا في حملها ابني سمير، ووضْعِه في حضنها، وتقبيله، كانت تقبله بجنون، ورأيت هذا في شرائها غزل البنات، كانت تلتهمه بشغف. لن أطلب أنا منها أي شيء، فقط أنا سأقدم لها الهدية، وهي من غير شك ستفتحها، وسوف تفاجأ، تدهش، تصيح: "يا إلهي، أنت تعرف ذوقي"، ثم تمضي إلى غرفتها الداخلية، لتخرج بعد قليل وهي ترتدي القميص الداخلي.

*

هذا هو المبنى الخامس، لا تلتفت، ولا تنظر إلى أحد، ادخل باب العمارة بشكل عادي. ولكنه يلتفت يمنة، وفي مدخل العمارة تتعثر قدمه، يسمع صوت باب يغلق، يأخذ في الهبوط على الدرج، يحس بالبلل في قدميه، أصابع قدميه متجمدة، أصابعه ترتعش، يزداد خفقان قلبه، الدرج ينعطف، ينعطف معه، عشرون درجة هابطة إلى الأسفل، ثمة بابان، أحدهما عليه لوحة خشبية، كان مثبتاً عليها فيما يبدو لوحة نحاسية، ثم أزيلت، الباب المجاور هو إذن باب شقتها، ينظر إلى الجرس، يحدق في الاسم المكتوب إلى جواره، حروفه ممحوَة، لم يبق منها شيء، يتردد، الماء يسح على الدرج، ثمة ماء في الفسحة أمام الباب، يغوص ثانية في بركة من الماء الأسود، حذاؤه يغرق، يزداد ثقلاً، البرق يخترق العتمة، الرعد يقصف، الجدران تهتز. يقرع الجرس، لا صوت، لا رنين، ينقر على الباب بأصابعه، يشق الباب عن وجهها، هي نفسها، يفرح، ولكنه يضطرب أكثر.

. أهلاً منذر، أهلاً تفضل، معك سناء وحبيبي سمير؟

. لأ وحدي، كنت هنا عند صديق لي، فاجأني المطر، تذكرتك، فقلت أزورك.

. أهلاً بك تفضل.

. فاجأتك، أو جئت في وقت غير مناسب؟

ـ لا مفاجأة ولا إحراج تفضل، أنا دائماً وحدي، كل الأوقات مناسبة.

يدخل، الضوء خافت، العتمة هي المسيطرة، على الجدارين في البهو الضيق لوحات كبيرة، ولكنها قلبت على وجهها، يصل إلى غرفة واسعة هي غرفة الجلوس على ما يبدو، جدرانها كلها مغطاة بلوحات مقلوبة على وجهها، في أعلى الجدار الأيمن نافذة زجاجية مغلقة، لا يتسرب منها شيء من نور، زجاجها أسود يعلوه الغبار والسخام، النافذة مستطيلة، هي من غير شك في مستوى الرصيف، يحس من خلالها وقْعَ الأقدام وصوت السيل المتدفق. تدعوه إلى الجلوس على أريكة طويلة، عمرها أكبر من عمر السيدة، على طرفي الأريكة مقعدان عريضان، تتوسط الغرفة منضدة خشبية عالية، فوق سطحها المتشقق بضع زهرات ربيعية متناثرة لا تنتظم في باقة. ليس فوق المنضدة ملاءة ولا غطاء، يضع الهدية إلى جواره على الأريكة. تقعد السيدة في المقعد العريض على يساره، تبدو أكبر مما قدر، هي من غير شك في الخمسين، ممتلئة أكثر مما رآها يوم أمس، يتنبه إلى وجود انحراف بسيط في فمها وهي ترحب به، لعله بقية من شلل شفيت منه. تسأله بحرارة عن زوجته، عن ابنه.

. حبيبي سمير، أحببته، ليته معك لأقبله.

ويقعقع الرعد، الجدران ترتج.

. للأسف ما عندي هاتف لتتصل بزوجتك حتى تطمئن عليك، الجيران في الدور الثالث عندهم هاتف، هل أصعد لأتصل بزوجتك حتى تطمئن؟

. لا تتعبي نفسك، أشكرك، لن تقلق عليَّ.

. الله يديم الحب بينك وبينها، زوجتك تحبك، هي صاحبة ذوق.

أعلى الجدار فوق باب المطبخ قفص صغير فارغ، بابه مفتوح، تلحظ أنه يتأمله، تعلّق:

. كان عندي في هذا القفص كناري، عاش معي عشرة أعوام، قبل سنتين، طار من القفص وأنا أضع له الماء، لا أعرف أين راح، شقتي مغلقة، روحه موجودة، أنا كل يومين أملأ له الصحن بالماء، الطعام لا ينقص، المسكين يعيش على الماء وحده، دائماً أسمع صوته، وهو يغرِّد، لكن لا أراه، لا أعرف أين ذهب؟ أستأذنك، سأصنع لك فنجان قهوة.

تمضي إلى المطبخ.

وينفجر الرعد، وترتج الأركان، ويحس بصوت السيل يجري في الرصيف فوقه، يرفع رأسه، فيرى الماء يسح على الجدار. ينهض، يرتبك، يحس أن الزجاج سينفجر، وأن الماء سيتدفق فوق رأسه، يحاول جرَّ الأريكة، يجرها بشدة، يجرها من الطرف الأيمن، ثم يجرها من الطرف الأيسر، يحاول وسعه إبعادها عن الجدار، الماء يسح، يسيل،

يحس الماء سيسيل تحت الأريكة. تدخل درية، تنتبه إلى الماء الذي يسح من النافذة على الجدار، تصيح:

. أوه، يا إلهي، انتظر لحظة.

تضع القهوة على الطاولة، وتسرع إلى المطبخ، تحضر قطعة قماش سوداء متسخة، تحاول وضعها وراء الأريكة، ولكن المسافة بين الأريكة والجدار لا تتسع لها. يأخذ الخرقة منها، وهي تعتذر إليه، ويمضي في وضعها بنفسه وراء الأريكة. تقول له:

. تفضل اقعد هنا، على هذا المقعد بعيداً عن الجدار، أو اقعد هنا على الكرسي إلى المائدة.

تلتفت، تحار، كأنها لا تدري ماذا تفعل، ثم تقول له:

. عندي قطعة كاتو من يوم أمس، اشتريتها وأنا راجعة من الحديقة، سأحضرها لك.

وتدخل إلى المطبخ، ثم تخرج حاملة صحناً فيه قطعة كاتو، تضعها أمامه على المنضدة. واضح أنها قسمت منها قطعة، أكلت ربعها تقريباً. تبادر إلى القول:

. أوه، أكلت منها أمس لقمة واحدة، اعذرني.

يلتفت إلى الجدار، الماء يزداد سحاً. تنتبه فتقول له:

. منذر، أنت جئت في وقتك، ربي يحبني، أرجوك، في الغرفة في الداخل سجادة عتيقة ملفوفة، ومسندة إلى الجدار وراء الباب، أنا

لا أستطيع حملها، أرجوك احملها، وضعها هنا تحت الجدار، حتى تمتص الماء، وسوف تنشف في الصيف.

ينهض، تسير أمامه، تدفع باب الغرفة، تتسرب إليه روائح عفونة ورطوبة، تدخل أمامه، تضيء مصباحاً خافتاً، يدخل في إثرها، وفي داخله هاجس، لعلها غرفة نومها، لا شك أن فيها سريراً، ولكنه حتماً لن يكون أحسن شأناً من الأريكة، يحس بوجوده معها في الغرفة الداخلية، يحس أنهما وحدهما، يتسلل إلى أنفه عبق أنثوي فاغم، لا يعرف أهو عطر رخيص أم رائحة جسد، العفونة تملأ صدره، وتقتله الرطوبة، ويحس بأصابع قدميه قد تجمدتا من البرودة والرطوبة، البرودة تصعد إلى ركبتيه، تشير إلى السجادة، يمد يديه إلى السجادة، يحس بها دبقة رطبة، خيوطها متفتتة متآكلة، كيف سيحملها؟ لا يعقل أن يحملها على كتفه، سيلوث قميصه، يمسكها، يجرها على الأرض، كم هي ثقيلة، يجرها، يجب أن يكون رجلاً، لا يمكن أن يعتذر إليها، هل يقول لها لا أقدر على حملها، يلمح وجود لوحات فنية كثيرة مركونة إلى جانب الجدار، كما يلمح في العتمة حاملاً للوحة الرسم، ثمة حاملان آخران، هي من غير شك غرفة رسام، عند خروجه يلمح قيثاراً معلقاً على الجدار. لا يستطيع حمل السجادة، هي مشبعة بالرطوبة، يشدها على الأرض شداً، ثم يلقيها وراء الأريكة، أسفل الجدار.

ويسمع صوت ماء يتدفق في المطبخ، كأنه سيل يتسرب، تنهض، تصيح:

. يا إلهي، هذه قصة كل سنة.

ينهض، يشم روائح كريهة. تتكلم:

ـ سامحني، حظك أنت سيئ، ولكن حظي أنا جيد، جئت لتنقذني، أنت ملَك من السماء أرسلك الله إلي، أنت تعرف، النهر قريب من هنا، يفيض، ويتسرب ماؤه إلى المجاري، فيخرج ماء المجاري من الحمام ، ومن البلاليع، أنت رأيت، شقتي تحت الأرض، تنزل إليها عشرين درجة، ومستوى الشارع منخفض، هذه قصتنا كل سنة.

. أي خدمة أساعدك بها؟

. ساعدني على حمل هذه الأريكة ووضعها فوق الطاولة، حتى لا تغرق في ماء المجاري، ما عندي غيرها، أنام عليها، لا تخف المنضدة قوية وتحمل، لا أستطيع فعل هذا وحدي، قلت لك، أنت ملك من السماء، ساعدني أرجوك.

بصعوبة بالغة يرفع الأريكة من طرف، وهي تحاول رفعها من الطرف الآخر، يحس بألم في أسفل ظهره، تقول له:

. هيا، سأعدّ إلى ثلاثة.

وتبدأ بالعد، وعند رقم ثلاثة يرفع الأريكة، ينفجر الألم في صلبه، أسفل ظهره. بقي المقعدان، تقول له:

. وساعدني على وضع أحد المقعدين فوق الآخر.

ماء المجاري المنبثق من المرحاض ومن بالوعات المطبخ يسيح في أرض الشقة، يحس أن حذاءه يغوص في ماء المجاري، ويتسرب إلى داخله، تتشربه أصابع قدميه.

ـ تعال، منذر، الآن اشرب قهوتك، اقعد هنا على الكرسي.

يحاول الاعتذار، تلح عليه.

ـ لك الثواب والأجر عند الله، أنت أنقذت الأريكة، وسلَّيْتني في مصيبتي، في الصباح بعد انقطاع المطر يعود كل شيء إلى ما كان عليه، هذا الماء كله يتسرب عبر البلاليع، السنة الماضية ارتفع الماء أكثر، جاءت سيارة الإطفائية وسحبت الماء.

يحس بشيء يدب بين قدميه، ينظر، يفاجأ بسلحفاة تحاول التسلق فوق حذائه، تنحني فوقها، تحملها بين ذراعيها، يبلغ عرض درع السلحفاة عشرين سنتيمتراً، تضعها فوق المقعد العريض، تحمل الزهرات الربيعية، تضعها إلى جانب السلحفاة فوق المقعد، تناجيها:

ـ سلمى، حبيبتي، تعالي، هذا مقعدك، وهذا طعامك، قطفت الزهرات يوم أمس من الحديقة لأجلك، الطين لوثك، لا تهتمي، ستستحمين معي بالماء والصابون.

تلتفت إليه وتتكلم بفرح:

ـ هذه توأم روحي، أختي الصغرى، عمرها أكثر من ثلاثين سنة، هي كل ما بقي لي من الدنيا، وهذا مقعدها، تنام فوقه ولا تتحرك.

تلحظ أنه ما يزال واقفاً يتأمل بعين الدهشة اللوحات معلقة مقلوبة على الجدران، تتكلم:

. اقعد منذر، اشرب قهوتك، اقعد، سأحكي لك عن ولدي راجي.

يقعد على الكرسي، تقعد قبالته، هي حقيقة عجوز متقدمة في العمر، ربما فوق الستين، بل هي في السبعين، وجهها شائخ، شعرها أبيض، عيناها لا بريق فيهما، بل لا لون لهما، كأن بياضا يغشاهما، أصابعها نحيلة مرتعشة، صوتها متقطع، صدرها يعلو ويهبط.

ـ راجي كان سيصير أكبر رسام في العالم، مثل بيكاسو وسلفادرو دالي، عنده أكثر من مئتي لوحة، اللوفر اشترى منه ثلاث لوحات، كان سيقام له معرض خاص في باريس في مركز بومبيدو الثقافي، وحجز له في شركة إير فرانس لنقل خمسين لوحة، وجرى التأمين على اللوحات، وتم ترتيب كل شيء، ولكن عشية السفر.....

تصمت، تغص، تكاد تختنق، تضغط بالسبابة والإبهام على حنجرتها، تعود إلى الكلام بصوت متقطع:

ـ حبيبي راجي، رأيت مرسمه في الداخل، ما عدت أستطيع الدخول إلى مرسمه، أنت رأيت اللوحة على الباب الخارجي، كانت تحمل اسمه، مرسم راجي، ما عدت أتحمل رؤية اسمه ولا لوحاته، أنا قلبت كل شيء، ولدي الوحيد راجي، يشبه ابنك سمير، يشبهك أنت.

تصمت، تغطي وجهها بيديها الاثنتين، ثم ترفع رأسها وتتكلم بقوة:

ـ لن أبكي، لن أضعف، لن أتكلم، راجي .....

ينهض، يهم بالخروج، تستوقفه، لتقول:

ـ منذر، أمس وأنا في الحديقة كنت أتأملك، لا أشبع من النظر إليك، أنت تشبه راجي، أول ما رأيتك حسبتك هو، وحين ودعتك ومضيت كنت أودع راجي، اسمح لي أن أقبل خديك، أنت ولدي.

ينحني تقبل خديه، يقول لها:

ـ واسمحي لي أن أقبل يدك ورأسك.

ينحني، يقبل يدها، يقبل رأسها، يلتفت ليخرج، تناديه:

ـ أوه، هنا شيء كان معك، خذه، لا تنس.

وتحمل الهدية بيدها، تناوله إياها، وهي تقول له:

ـ منذر، سامحني، أتعبتك معي، لكن أشكر الله الذي أرسلك إلي، أرجوك في زيارة قادمة أحضر معك سناء زوجتك، ولا تنس حبيبي سمير، أحضره معك.

يفكر بتقديم الهدية لها، لكنه يجد الموقف غير مناسب، يمد يده إلى اللفافة يحملها ويخرج.

*

وهو يصعد الدرجات من القبو الرطب، يحس بألم شديد أسفل ظهره، في الفقرة الأخيرة، كأن سكيناً باردة تحز فيه، يصعد ببطء، يخرج من القبو المعتم. السماء صافية، والشمس مشرقة، وقد مالت إلى الأفق الغربي، تألق الشارع كالذهب، والماء يسيل على طرفي الشارع، تبتلعه

فتحات المجاري، السيارات تروح وتجيء، وقد تألقت بعد أن غسلها المطر، ولعجلاتها نشيش. يسير نحو بائع القمصان، يقرر تبديل القميص بمقاس أصغر، ولكنه يجد الباب الزجاجي مغلقاً، وقد علق عليه من الداخل لوحة كتب عليها: "مغلق من الساعة ٤ إلى الساعة ٦"، ينظر إلى ساعته وإذا هي الرابعة والنصف. يشير إلى سيارة أجرة، وهو يدخل فيها، يلتمع ألم شديد في ظهره.

*

ويأخذ في صعود الدرج إلى زوجته وابنه في الدور الرابع، أول مرة يشعر بصعوبة الصعود، ظهره يؤلمه، قبل أن يصل إلى الدور الرابع يشم رائحة بخور. وراء الباب تستقبله زوجته، يقول لها:

ـ أرجوك هيئي لي الحمام، البرد أكلني، أقدامي امتصت برد العالم كله.

ـ الحمام جاهزة، توقعت هذا، في غيابك مسحت الأرض والجدران، نظفت البيت كله، ثم غسلت سمير، واستحممت، هو نائم، ووجدت في درج الخزانة عود ندّ معطَّر أهدتنا إياها أمك بعد عودتها من الحج، أشعلته، هل تشم روائح البخور العطرة؟

. شممت هذه الرائحة وأنا أصعد درج العمارة.

يضع يده على ظهره، وهو يخلع حذاءه، يحاول إخفاء ألمه، تتنبه إليه، تسأله:

. حبيبي، ضهرك يؤلمك؟

تنحني لتساعده على خلع حذائه والجوربين، يميل عليها، يقبل رأسها، يشم رائحة الصابون الحلبي العطر، وهو يقول:

ـ أرجوك، لا تفعلي، اتركي الحذاء والجورب، هو ألم بسيط، لا تقلقي.

ـ هذا من أثر المطر والبرد، ثيابك مبللة، أين المظلة؟

ـ انكسرت، وطارت.

ـ سأغسل قدميك بالماء الحار، ثم تستحم، سأستحم معك، لأدعك ظهرك، ثم أنشفه جيداً، عندي مرهم للآلام، سأجري لك المساج بعد الحمام، قل لي هل حملت أي شيء ثقيل؟

ـ لا، لا تقلقي، حملت لك هذه الهدية، تفضلي، ليست ثقيلة.

ـ ما هذا؟

ـ قميص نوم وردي.

ـ أوه، والله حلمت به أمس.

ـ لكن، لا خبرة لي بشراء مثل هذه الأمور، هو واسع، عريض، أكبر من مقاسك، ما كان عند البائع غيره.

تضحك، تطوق عنقه، وهي تهمس:

ـ هذا أجمل.....أنت يسهل عليك ضم يديك فيه، وأنا يسهل عليَّ خلعه.

حكاية .....يد

"وأنت تدير بيدك المفتاح في القفل، تملك حريتك،
ولو كان المسدس مصوباً إلى رأسك"
سارتر

تغيَّر كل شيء عندما جاءت أخته من باريس، تتقدَّمها بطنها، جاءت لتلد في الوطن، وهاهو ذا يضع في راحة كفه يد ابن أخته، كم يده صغيرة؟! هل هي عصفور؟!.

لا يغادر البيت إلا بعد أن يقبِّلَ يد جدّته، كم فرحت حين قُبِلَ في كلية الطب، كلما رجع من الكلية سألته: "ألم تخترع دواء يعيد العجوز مثلي إلى صبية؟".يأخذ يدها بين يديه، يحضنها، يقبِّلها، يحس بها راعشة، عروقها زرقاء، نافرة، متجمِّدة، مثل أنهار في خريطة، لا دمَ فيها، الجلد متجعِّد، أخاديد وأحافير حقيقية، وبقع سوداء ورمادية، شامات الشيخوخة، يلثمها، يشم فيها رائحة عطر خاصة، ثم يقبِّل رأسها، كان يرى الدنيا كلها مختصرة في يدها.

ثم تغير كل شيء. ثمة يد أخرى صغيرة جداً، ناعمة جداً، يخشى على أصابعها، كأنه لا عظام في الأصابع، يضعها في راحة كفه، كأنها عُصفور، شذاها مختلف، يكاد الجلد فيها يشف عن اللحم، جلد أبيض رقيق، ناعم، يخشى عليه إن هو لمسه.

الآن أدرك حقيقة اليد، ما كان يحس بها كذلك من قبل.

*

في بهو الكلية، يسير إلى جوار زميلته "كريستين"، تعمّد أن تمسَّ يدُه يدَها، من غير أن تحس أن ذلك مقصود، شعر بدفء مختلف، سرى في جسده. دعاها إلى المقصف، أحضر لها بنفسه كأس الشاي، وهو يناولها الكأس، تعمَّد لَمْس أصابعِها، بركان يشتعل، لا يعرف، أأناملـه هي المشتعلة أم أناملها؟ فتح الكتاب، بعد أن وضعه على المنضدة أمامها، ثم قال بلهجة مستنكرة:

. أرجوك، اقرئي هذا السطر، عن سُلاميات الأصابع، وعضلات الكف، ضعي إصبعك عليه، تتبَّعيه كلمة كلمة، مثل الأطفال، هل فهمت منه أي شيء؟

ووضعت يدها على الكتاب، وضع يده فوق يدها، أمسك بإصبعها، وهو يقول:

. هذا السطر، لا، لا ، هذا السطر، اقرئي.

لم تكن غايته أن تقرأ، غايته أن يمسك يدها، يدها باردة مثلوجة، لم تُبْدِ أي استجابة، يده راعشة مضطربة. أناملها موسيقا، يدها عطر، هنا شيء يودُّ أن يناله، قبض على أصابعها بجُمْع يده، اعتصر الأنامل أحس بالرحيق يسيل، النعومة تنساب بين يديه، يمكن أن يشربها أو يقضمها.

صاحت، وهي تضحك:

. مابك؟!، كسرت أصابعي.

أرخى قبضته، همس:

. أنا آسف، كنت مستاء من الكتاب ومن الأستاذ ومن المقرَّر كله.

بعفوية وضعت أصابعها على سطح كفه، ضغطت عليها، وهي تقول:

. لا تقلق، أنا سأشرح لك كل شيء.

وأخذت تتكلم وهي تربت بيدها على يده تارة، وتارة ترفع بها شعرها، وهي تقول:

ـ في الكف وريدان رئيسيان:الرأسي والقاعدي، وشريانان رئيسيان: الزندي والكعبري، وثلاثة أعصاب: الناصف والكعبري والزندي، على كل حال، غداً في التاسعة درس تشريح لليد في المستشفى.

نهض فجأة، كأن الأرض مادت تحته، وهو يقول:

. لن أحضر، هيا، لنخرج إلى حديقة الكلية.

نهضت، مشت إلى جواره، وهي تسأله:

. لماذا لن تحضر؟

أجاب بنبرة جافة:

. لا أعرف!

. هل أخطأت أنا في شيء ....هل أنا السبب؟

*

رجع إلى البيت محموماً، طوال الطريق وهو يشم راحة يده، ما يزال فيها بقايا من عطر يدها.

أسرع إلى ابن أخته "خالد"، وقد أسمته أمه "خالد"، باسْمِ جدتها "خالدة"، حمله بين يديه، أمسك كفه بقبضة يده، كأنها فرخ عصفور، هي مجرد كتلة من لحم، أغلق قبضته عليها، فتحها، وضعها في راحة كفه، رفعها إلى فمه، إلى أنفه، شمها، لثمها، هل هي تفاحة على غصن أمها في حقل واسع عند الصباح الباكر قبل صعود الشمس والنور يغمرها؟ هل هي شمعة في معبد؟ هل هي من أجنحة الملائكة؟ هل هي من روح الله؟ مضى إلى جدته، حمل يدها بين يديه، قبلها، أحس أنه يودعها؟ هل هي حجر في قبر؟ ما تزال دافئة ترتعش.

دخل إلى غرفته، ألقى نفسه على السرير. لن يغسل اليوم يديه، لن يستعمل الماء والصابون، سيظل محتفظاً ببقايا من يد "كريستين"، أغمض عينيه، وأخذ يسترجعها، كأنه يسترجع حلماً يغادر جفنيه.

*

في ظهيرة اليوم التالي فاجأته "كريستين" في حديقة الكلية:

. أحمد، ما جئت إلى درس التشريح؟

لم يجب، أضافت، وهما يسيران معاً:

ـ كان الدرس على أهمية كبيرة، قام الدكتور بتشريح اليد أمامنا.

. لا أستطيع أن أرى اليد والمبضع يعمل فيها.

ـ ولكنها يد إنسان ميت، ومن قبل حضرت تشريح أعضاء أخرى؟

. أعرف، إلا اليد.

. لماذا؟

. منذ أسبوع فقط اختلف عندي كل شيء.

. والسبب؟

يصمت، تلتفت إليه، تقف قبالته، تسأله وهي ترد شعرها بيدها عن جانب وجهها:

. لم تجبني، ما الذي اختلف؟ هل أنا السبب؟

يغمغم، وهو ينظر إلى البعيد:

. لا، ليس أنت، سأحدثك فيما بعد.

ـ كنت أتمنى حضورك، تعال نقعد هنا، لأوضح لك بعض الأمور الأساسيّة في تشريح اليد.

وقعد إلى جانبها على مقعد حجري تحت قوس تتسلقه شجيرة ورد صفراء ناعمة.

. هات يدك.

ناولها يده، بسطت كفه في راحة يدها، سألته:

. هل تعرف عدد قطع العظام في الكف؟

. تسع عشرة.

. وكم عضلة فقط في وسط الإبهام؟

. ثلاث.

تضحك، تصفق، ترد شعرها بيدها، ثم تمسك براحة يده، تأخذها بين يديها، وهي تقول:

ـ لأ، خمس، سأعددها لك،هي: مُبْعِدة الإبهام القصيرة، والقابضة القصيرة، والمُقَرِّبة، والمُقابلة للإبهام، والباسطة، ويمكن تحريكها خمس حركات، وهي: تقريب وتبعيد وبسط وقبض ومقابلة.

*

لم أصدق عندما قال لنا أستاذ التاريخ في مرحلة الشهادة الإعدادية إن الفضل في صنع الحضارة يرجع إلى الإبهام في كف الإنسان، الإبهام هي التي تميزه عن سائر الكائنات، بفضلها وفضل سائر الأصابع، استطاع أن يخترع الأدوات والآلات.... وأنا أقول لولا راحة يده وأصابعه وكفه لما عرف الحب، من اليد يبدأ الحب.

*

وتضع إصبعها على عُقَد يده، وتسأل:

. وما الاسم العلمي لهذه العُقد؟

. هذه بسيطة، مفاصل مشطية سُلامية.

. أحسنت.

يأخذ يدها بين يديه الاثنتين، ويقول:

ـ أنا سأسألك سؤالاً واحداً فقط، ليس في مجال الطب: ما أجمل يد؟

وتجيب فوراً:

ـ يدي أنا، لكن ليس الآن، غداً عندما أصبح أماً، لأني بيد سأهز السرير، وبيد أخرى سأهز العالم.

يضحك يعلق:

ـ لأ، لأ، ليس هذا قصدي، أريد ما أجمل صورة لليد رسمها فنان، وحار الفلاسفة في تفسيرها؟

تسحب يدها من بين يديه، تصطنع العبوس، ثم تقول مستنكرة:

ـ ولكن، ما كان هكذا السؤال.

ـ كان هذا أنا قصدي من السؤال.

ـ لا أعرف.

ـ يد الموناليزا.

ـ أعرف أن العلماء حاروا في تفسير بسمتها ونظرة عينيها.

ـ بل حاروا أيضاً في تفسير وضع يدٍ فوق الأخرى، وعلى الطرف الأيسر من بطنها.

ـ أظن أنها حامل.

أجاب وهو يضحك:

ـ لأ، لأنها أرستقراطية، تناولت عشاء دسماً، ثم قعدت أمام المصور ليرسمها.

تضحك، تأخذ يده بين يديها، تمرر إصبعها على عرق في يده، وهي تقول ممازحة:

. ولكنك خدعتني، أنا مُصِرَّة، ما هكذا كان السؤال.

أحس بيده باردة، يدها نار مشتعلة، الشموس والأقمار تسير فوق راحة كفه، كل أنهر العالم تصب في عروق يده، أصابعه باردة باردة.

. هل يمكن أن تقرئي لي كفي؟ بعد ما قمتِ أنت بتشريحها.

*

قبل سنتين فقط، بعد تقديم امتحان الشهادة الثانوية، كان في رحلة مع ثلاثة من أصدقائه إلى البحر، اقتربت منهم عرَّافة غجرية، توجهت إليه مباشرة من بين جميع أصدقائه، وهي تقول: "هات كفك، سأقرأ مستقبلك، أنا أرى الآن مستقبلك أمامي، بسرعة ضع يدك هنا في يدي واسمعني". بسط لها يده، أخذت راحة يده بين يديها، وأخذت تمرِّر إصبعها على راحة كفه، وهي تقول: "خط الحياة عندك طويل ومنعطف، ستعيش عمراً مديداً، خط الرزق عميق، وغائر في بطن راحتك، رزقك وفير، ولكن ستتعب في تحصيله، خط القلب مستقيم، صحتك قوية، ولن تمرض إلا بأمراض بسيطة، لن تحتاج إلى مراجعة طبيب، خط النصيب ينحني عكس خط القلب، لن تتزوج مَنْ تحب"، سألها وصحبه من حوله يضحكون: "لماذا؟"، أجابت: "لأن خط العقل عندك غائر وعميق، أنت عنيد، هات افتح عليَّ مما فتح الله عليك"، ومدّ صديقه ياسر يده، فقالت: "لا، هذا فتح رباني، ما كل مَنْ مدَّ يده أستطيع قراءة كفه".

*

تقول، ويده ما تزال في راحة يدها وهي تداعب بإصبعها عروق يده:

. هل تصدق هذه الخرافات؟

حكى لها عن العرافة قارئة الكف، ضحكت، ثم هبطت على الأرض، قعدت أمامه على العشب، تناولت راحة يده، كالعرافة، وأخذت تقول:

. أنا سأنقض كلامها كله، سأقول لك عكس ما قالت، ستدخل إلى كلية الطب، وستتزوج من تحب، وكلامها كله كذب في كذب.

. والعمر؟

. ستعيش العمر المديد، وأنت سعيد سعيد.

ترفع رأسها عن راحة يده، ترى عينيه غارقتين في فتحة القميص، حيث الصليب الذهبي، تنهض عن الأرض، تقف قبالته، تسأل مستاءة وهي تزر القميص:

. هل أفتح لك القميص أكثر؟

يمسك يدها، يشدُّها إلى جواره، وهو يقول:

. أرجوك، اقعدي، عودي إلى مكانك، ولا تسيئي فهمي، تذكرت فيلماً شاهدته، عنوانه"عذاب المسيح"، أعرف أنه مجرد تمثيل، وأعرف أن الكف من بلاستيك، ولكن آلمني دقُّ المسمار في راحة اليد، دارت

بي الأرض، وكدت أسقط مغمى عليّ، كنت يومئذ في آخر المرحلة الإعدادية، تذكرت، بالضبط عام ٢٠١٠.

تعود إلى جواره على المقعد، يضع يده على جبينه، يصمت، ثم يضيف:

. سألت نفسي كيف يوصي السيد المسيح عليه السلام، فيقول: "إذا ضربك عدوك على خدك الأيمن، فأَدِرْلَه خدك الأيسر"، ثم تُدَقُّ المسامير في راحتيه؟! واليوم أنظر إلى راحة يده هنا على الصليب، وأتذكر يد ابن أختي خالد، آه، لو لمستِها، هي أنفاس عيسى، هي كلمات محمد، هي من روح الله.

ويحدّثها عن يد ابن أخته خالد، فتسأله:

. لذلك لم تحضر درس التشريح؟

. نعم، أيُّ يد أَرَها، أي كف، تذكِّرْني فوراً بيد ابن أختي، براحة كفه الناعمة، صورتها تملأ خيالي، تسيطر على أحاسيسي كلها.

. كان عليك الدخول إلى كلية الآداب، لا الطب.

. هذا ما سأفعله بعد التخرج.

. ولكن العرافة لم تتنبَّأْ بذلك؟

وتنهض، تمد يدها إلى قوس الورد لتقطف وردة، فيسرع إلى إمساك يدها، وهو يصيح:

. لا، لا تقطفيها.

. لا تخف، سأتجنب الشوك.

. ليست المسألة مسألة شوك، هي مسألة يد، لم يخلق الله اليد للأذى.

. وهل في قطف وردة صغيرة ناعمة أذى؟

ـ نعم، هي روح مثلنا، قطْفُها يعني فصْلَها عن أمها، هل تعرفين اسم هذا الورد الناعم اللطيف؟

. لا.

ـ هذا الورد يسمى عندنا في بلاد الشام "تفنوفة"، لا أعرف اسمه العلمي، هو ورد موسمي، يتفتح مرة واحدة في السنة، يتفتح فقط في الربيع، يتفتح بغزارة، أرجوك، تأمَّليه، ولا تقطفي أي وردة.

وحمل يدها بين يديه، رفعها، قرَّبها من فمه ليلثمها، وهو يقول:

. لا أريد لهذه اليد إلا الخير والجمال.

ودوَّى طلق ناري. صاح:

. طلقة من يد قناص.

شدّ على يدها أكثر، ضمّها إلى صدره، أحسّ بها كيد ابن أخته خالد تسقط في يده، ارتعشت أنامله.

. أحمد، لماذا كل هذا الفزع؟

سألها وهو ذاهل عن كل شيء:

. هل سيكبر خالد لتناله طلقة من يد قناص؟

*

ودوَّت طلقة أخرى.

حلم سامح

عند الساعة الثانية عشرة ظهراً قال له زميله مرهف:

ـ سأطلب القهوة، ما رأيك؟

تردَّد جنيد، أحس برائحة القهوة تتسرب إليه، قاوم، أجابه:

ـ اتفقنا على فنجانين في اليوم، واحد في العاشرة، والثاني في الثانية، قبل الانصراف بساعة.

رد بهدوء:

ـ أقترح تعديل الاتفاق، ليكن ثلاثة في اليوم، في التاسعة، وفي الحادية عشرة، وفي الواحدة، كنا نشرب في اليوم خمسة فناجين، أو ستة، لا يعقل أن نهبط فجأة إلى اثنين.

ـ وهل نسيت أن الأسعار ارتفعت من عشر ليرات إلى خمس وعشرين ليرة؟ يكفي أن يصبح ثمن الفنجان خمس عشرة ليرة.

ـ من حق الآذن رفع السعر، كان كيلو البن بأربعمئة أصبح بألف وأربعمئة، حتى دستة الفناجين العادية كانت بثلاثمئة صارت بألف ليرة، ولا تنس السكر.

ضحك جنيد، علق:

ـ نحن نشربها من غير سكر، ليكن الفنجان من غير سكر بعشرين ليرة، وبالسكر بخمس وعشرين.

ورن مرهف الجرس، جاء الآذن، أوصاه بفنجانين من غير سكر.

مرهف ينهض، يتمشى في الغرفة:

. أخي جنيد، هل تقبل أن نشرب القهوة دائماً على حسابي أنا؟ اعتبرها ضيافة مني، أرجوك.

جنيد ينهض، يسير نحوه ببطء:

. أشكرك يا أخي، ولكن

مرهف يضع يده على كتف جنيد، يقول له:

. أنت عندك خمسة أولاد، وراتبك لا يكفي، وزوجتك ربة بيت لا مورد لها، وأنا ليس عندي غير ولدين، وزوجتي موظفة، راتبها مثل راتبي.

. أكرر شكري لك، أخي مرهف، وأعتذر عن قبول هذا العرض، أرجو ألا تنسى أننا سواء، أنا بيتي ملك زوجتي، أنا لا أدفع أجرة، وأنت بيتك مستأجر، وتدفع شهرياً أكثر من نصف راتبك أجرته، وضعك مثل وضعي، دعنا معاً نقلل من فناجين القهوة.

مرهف يعود إلى مكانه وراء المكتب، وهو يتكلم:

. **السيكارة، أنا وأنت، أقلعنا عنها.**

جنيد يرجع إلى مكانه وراء منضدته:

ـ وأنا من الشهر الماضي بدأت أستغني عن وسائل المواصلات، أرجع إلى البيت ماشياً، ولولا خشية التأخر عن العمل لجئت ماشياً.

مرهف يتكلم:

. أين وعد المدير؟ هل تذكر؟ قبل ستة أشهر وعد باستئجار حافلة تحضر الموظفين في الصباح إلى المديرية، تمر بعدة نقاط تجمُّع وتأتي بهم، حتى لا يتأخر أحد.

. هو وعد، كما قلت، وما أكثر الوعود.

وقبل أن يرجع الآذن بالقهوة دخل عاملان من العمال في المديرية يحملان منضدة طويلة.

دهش مرهف وسألهما:

. لمن هذه المنضدة؟

ردّ أحدهما:

. **لموظف جديد.**

وقبل أن يتم كلامه، دخل شاب في الثانية والعشرين، موفور الصحة، مشرق الوجوه، حياهم، وقال:

. أنا سامح، الموظف الجديد، كلفني المدير بالعمل معكم في الديوان، أرجو قبولي شريكاً في الغرفة.

مرهف وجنيد يرحبان به، من تلقاء نفسه، اتجه إلى كرسي، سحبه، وضعه بشكل مؤقت أمام منضدته الجديدة، قعد عليه، وهو يقول:

. أرجو ألَّا أكون ثقيلاً، على كل حال سأحمل جزءاً من العمل، كلفني المدير بتسجيل الوارد من الوزارة، وإرساله إلى المدير مباشرة، ثم سيحوله هو إليكم.

ويرجع العاملان يحملان مقعداً جلدياً مريحاً، يضعانه وراء المنضدة، سامح يضع في يد كل واحد منهما ورقة نقدية مطوية، هي من غير شك ليست بالصغيرة. سامح يأخذ مكانه في المقعد الجلدي وراء المنضدة. يدخل الآذن حاملاً فنجاني قهوة، يبادر مرهف:

ـ أحضر فنجان قهوة للأستاذ سامح، الموظف الجديد في المكتب.

ويضيف سامح على الفور:

. سجل الفناجين الثلاثة على حسابي، قهوتكم لهذا الشهر على حسابي.

*

في صباح اليوم التالي يدخل مرهف إلى المكتب فيجد سامح قد سبق إلى الدوام، ويجد على كل منضدة من المناضد الثلاث ملاءة حريرية زرقاء ناعمة تغطي سطح المنضدة، وفوقها أدوات مكتب كاملة: دفتر للملاحظات ومجموع وريقات صغيرة وتقويم يومي خاص وخرازة ولاصقة وحاملة أقلام وحاوية أوراق، وهي جميعاً من صنف فاخر ولون واحد، وعلى زاوية كل منضدة أصيص فيه نباتات زينة طبيعية.

سامح يتكلم:

. هذه هدية مني، أرجو أن يعجبك اختياري.

ويدخل جنيد، فيقول مرهف:

. انظر إلى هدايا الأستاذ سامح.

يدهش جنيد، ويلتفت إلى سامح يصافحه شاكراً، ويتكلم سامح:

ـ وهنا على الجدار وراء الباب علقت مرآة كبيرة وجديدة، وحاملة ثياب، لن ننتظر المديرية لتزويد المكتب بلوازمه الضرورية.

وما إن يتخذ كل منهم موضعه وراء مكتبه حتى يدخل الآذن أبو محمود يحمل صينية زجاجية متألقة فيها ثلاثة فناجين جديدة مذهبة، وتعبق في المكتب رائحة القهوة بالهال، يتكلم سامح:

. جاري في العمارة بائع بن مشهور، القهوة دائماً أنا سأحضرها من محله، أرجو أن تنال إعجابكم، وهذه الفناجين ما اشتريتها، هي من البيت، أمي مولعة باقتناء فناجين القهوة، هي التي طلبت مني حمل هذه الفناجين إلى المكتب، وأبو محمود سيأخذ ثمن أتعابه كالعادة.

في اليوم التالي يدخل سامح في بدلة جديدة، مرجل الشعر، وعلى عينيه نظارة شمسية فاخرة، ويقدم لكل منهم مجموعة أقلام فاخرة من الحبر الجاف، وهو يعلق:

. أقلام المديرية حبرها فاتح اللون، ويتقطع، والأصابع تتشنج، هذه الأقلام مختلفة كلياً ومريحة.

يتكلم مرهف:

ـ أخي سامح، أنت تبالغ في تكريمنا، ونحن نشعر بالحرج، ولا نستطيع أن

سامح يعلق:

ـ نحن نمضي عمرنا كله هنا، لماذا نحرم أنفسنا من متعة العيش؟

ـ ولكن، أنت تهدر راتبك كله؟!

يبتسم سامح بلطف، وهو يتكلم:

ـ ولماذا أدَّخره؟ ولمن؟

ويتكلم جنيد:

ـ أنت، لا شك، أعزب.

ـ نعم، فهمت قصدك، وعندما أخطب، سوف أسترد كل شيء وضعته هنا في المكتب، وأبيعه، لأشتري للخطيبة شقة مناسبة.

ويغرق الجميع في الضحك، وهم يشربون القهوة. ويضيف سامح:

ـ لعلمكم، أنا وحيد لوالدي، ووالدي موظف، لم يتقاعد بعد، وأمي مدرّسة، وأنا غير مطالب بالإنفاق على البيت.

يتكلم مرهف:

ـ ليتك جئت يا أستاذ سامح قبل عشر سنوات.

يسأل سامح مدهوشاً:

ـ يسرني ذلك، ولكن قبل عشر سنوات كنت ما أزال في الثانوية، المهم، قل لي لماذا؟

مرهف يتكلم وهو يشير إلى جنيد:

. كنت نصحت للأستاذ جنيد أن يفعل مثل والدك، قبل أن ينجب خمسة أولاد.

سامح يتكلم:

. لأ، أنا على العكس، أهنئه، حياة الولد الوحيد صعبة، بالنسبة إليه وإلى الوالدين، وإلى البيت كله، جمال البيت امتلاؤه بالأولاد.

جنيد يتكلم:

. سأخبركم، بمناسبة حضور الأستاذ سامح، زوجتي حامل منذ أربعة أشهر، وكنت أخفي عن أخي مرهف حتى لا يلومني أكثر، وأمس صورت، والجنين ذكر.

سامح يتكلم:

ـ بارك الله لك في القادم الجديد، ومن الآن للمولود هدية خاصة مني.

مرهف يتكلم مازحاً:

. إذا كان هناك هدية من الأستاذ سامح، فهذا شيء مشجع، أنا من الغد سأوصي زوجتي بالتوقف عن حبوب الحمل، أنا ما عندي غير ولدين، سأنجب عشرة.

سامح يتكلم:

ـ ولكن لن أقدم غير هدية واحدة لأول مولود.

ويغرقون في الضحك، وهم يشربون القهوة، سامح يتكلم:

ـ في الشهر القادم سأشتري ستائر مخملية للنافذة، وسأملأ غرفة المكتب بأزهار الزينة، وسأضع في أعلى الجدار، فوق الباب شاشة تلفزيون عريضة.

يتكلم جنيد:

ـ المدير لن يوافق، التلفزيون سيشغلنا عن العمل، حتماً، المدير سيمنعنا.

سامح يتكلم:

ـ لماذا يمنعنا؟، ليس في القانون أي نص يمنع من وضع تلفزيون في مكاتب الموظفين، المدير نفسه عنده شاشة كبيرة في مكتبه، من حقنا أن نكون على تواصل مع العالم، وأن نعرف ماذا يجري.

ويتكلم مرهف:

ـ وجود التلفزيون يساعدنا على الترفيه عن أنفسنا، ويرفع من مستوى العمل.

*

في مطلع الأسبوع الرابع من دوام سامح، أخذ جنيد إجازة مرضية لأربعة أيام.

في اليوم الخامس يرجع جنيد إلى الدوام، يدخل إلى المكتب، فيدهش، مرهف سبقه، في بدلة فاخرة جداً، مثل بدلة سامح، على عينيه نظارة فاخرة جداً، مثل نظارة سامح، مرهف يقف كأنه سامح، يتنبه جنيد إلى وجود ستارة مخملية فخمة تغطي النافذة.

جنيد يتكلم:

. حقيقة، الأستاذ سامح صاحب ذوق رفيع، هو وعد بتركيبها في أول الشهر، ولكن لم يدخل الشهر الجديد بعد، ما هذا الكرم؟

مرهف يتكلم بهدوء:

. أنا اشتريتها، وأنا ركبتها، وطوال ما نحن معاً فسنشرب القهوة على حسابي، أنت وأنا وكل ضيوف المكتب، وفي أول الشهر، بعد غد، سأشتري بالتقسيط من راتبي شاشة تلفزيون أضعها على الجدار فوق الباب، سأحقق حلم سامح، قررت أن أعيش كما عاش سامح.

جنيد يتكلم:

. ولكن سامح هو الذي وعد، أين سامح؟

. لم أتصل بك، وأنت في إجازة مرضية، سامح في اليوم التالي لغيابك، أخذ إجازة ليوم واحد لزيارة صديق له في القرية كان أجرى هذا الصديق عملية جراحية.

جنيد يتكلم:

. وطاب له جو الريف، وهو يحب أن يعيش، ولذلك، على ما أظن، مدد الإجازة لأربعة أيام أو خمسة.

مرهف يتكلم:

. لأ، كان في حافلة صغيرة مع عشرة ركاب، وقبل وصوله إلى قرية صديقه سقطت قذيفة مباشرة فوق الحافلة، استشهد كل الركاب، وفيهم سامح والسائق.

جنيد يتكلم وهو يمسح الدموع عن عينيه:

. **عندما تضع زوجتي مولودها سأسميه سامح.**

"سمر" تحب "سامر"

كل أفراد الأسرة يحبون "ماجد"، طبعاً هم يحبون "ماجد" و"سامر"، ولكن يحبون "ماجد" أكثر. إلا أنا، فأنا أحب "سامر" أكثر.

"ماجد" و"سامر"، قبل شهرين أتما السنة الأولى من عمرهما، هما توءمان. "ماجد" تناول ما يقارب قطعة كاتو، "سامر" لم يتناول سوى لقيمات صغيرة. "ماجد" يحبّ كل ما هو حلو، و"سامر" يحب كل ما هو حامض، جدته تكلم ابنتها وهي تقول:

ـ الحلو يساعد على الصحة، طعمي "ماجد" يابنتي طعميه، أما الحامض فيضعف الجسم، اتركي "سامر" يأكل ما يريد.

وهي تقصد بالصحة البدانة وبالضعف النحافة.

"ماجد" قوي، مدور الوجه، مفتول الذراعين، ممتلئ الفخذين، واسع الصدر، عريض الكتفين، أشدق الفم، عيناه مدورتان، مثل عيني نسر، له بطن منتفخة، يهجم على الطعام، يبتلع بنهم، ويهمهم: "هَمْ هَمْ".

"سامر" يُتعِب أمَّه كثيراً في إطعامه، لا يأكل إلا القليل القليل، كثيراً ما تضجر منه، وتتركه حتى يجوع، لعله يقبل على الطعام إذا جاع أكثر.

"ماجد" تجاوز مرحلة الزحف سريعاً، بدأ يخطو مستنداً على حافة الأريكة، ويقع، ثم ينهض، "سامر" ما يزال يزحف على الأرض، كأنه جندي في حرب يزحف تحت الأسلاك الشائكة، ويتعب فيبكي.

أبوه يراه وهو يزحف، فيهتف:

ـ منبطحاً، تقدَّم.

ويظل يبكي حتى يأتي مَن يحمله.

قبل يومين وصل "ماجد" إلى المطبخ، بين الزحف والمشي بالاستناد على الجدران، وفتح الخزانة، وعبث بالسمن والجبن وكيس الأرز، وتناثرت قطع الجبن على الأرض، واندلق الأرز من الكيس، واختلط بالسمن، ركضت إليه جدته، زوجتي، وهي تقول:

ـ كسِّر، دمر، اعبث، العب، كل شيء فداك، المهم سلامتك، حبيبي، جدك سيعوض كل شيء.

وتقصد بجده والدها، جده الأعلى، لا أنا.

وتحضنه إلى صدرها، ويمد يده إلى شعرها، يشده، فتميل إليه، وتقول له:

ـ شدّ أكثر، قطِّعْه.

ثم تضعه في مقعد عريض، فيتربع فيه، وتظهر بطنه الممتلئة، ويبرز صدره العريض، ورقبته الثخينة، فتقول:

ـ هكذا اقعد، مثل أكبر تاجر في السوق، مثل جدك، وهذا الصعلوك، "سامر"، سيكون هو المحاسب في متجرك الكبير.

زوجتي تقصد بالجد هنا أيضاً والدها، الجد الأعلى، لا أنا، والدها صاحب محل صغير في سوق الأقمشة، وما هو بالتاجر الكبير.

ابنتي الأخرى، أي الخالة، تحمل "ماجد"، وتقول:

. أهلاً بالرجل، أهلاً بالمصارع.

هذه ابنتي، وهي تحب برنامج المصارعة الأمريكية W.ROW

وتضحك أمه، تضمه إلى صدرها، وتقول:

. أريده رائد فضاء، يصل إلى المريخ.

وأقول لخالته:

. احملي "سامر".

ترد:

. أنا أحمل هذه الدودة؟! أو هذا الصرصور، والله أخشى على ظهره إذا حملته، وأخاف على يده إذا أمسكته، ما في جسمه لحم، ما فيه غير الجلد والعظم.

وأقول لأمه:

. هاتي أعطيني "سامر"، أنا سأحمله.

تقول لي ابنتي مداعبة:

ـ صدقت، أنا أعرف، لا يمكنك حمل "ماجد"، لذلك تقول هاتي أعطيني "سامر".

أقول لها:

. لا تنظري إليَّ الآن، أنا ليلة العرس حملت أمك وصعدت بها من أرض الدار عشرين درجة إلى العِلِّية، لكن أمك بعدها كسرت ظهري، هات للبيت وهات، طلبات لها أول ما لها آخر.

"سامر" رقيق، حساس، ينظر حواليه، يتأمل، يلتفت إلى أقل همسة أو حركة، يشير بيده، تضع له أمه على المائدة فتات الخبز ، فيلتقطه بإصبعين قطعة قطعة، مثل عصفور، "ماجد" لا يستطيع أن يلتقط ، يريد أن يمسك كل شيء بقبضته، بأصابعه كلها، يحسن الإمساك بمسند الكرسي، أو بطرف المائدة.

الأب يحمل "ماجد" ويلقيه إلى قريب من السقف، ثم يتلقاه بين يديه، أقول له احمل "سامر"، يجيبني:

. والله أخشى إذا قذفته إلى الأعلى أن يطير مثل ريشة ولا يرجع.

أقول لأمه:

. "سامر" سيصبح في المستقبل عازف بيانو.

وترد:

. و"ماجد" سيكسر له البيانو، ثم سيشتري له غيره.

ويصيف الأب:

. لا أريده إلا قائد دبابة.

وتغادرنا ابنتي إلى بيت حميها، بعد انتهاء زيارتها.

يمر أسبوع، يمر أسبوعان، أشتاق إلى حفيدي "سامر".

أذهب أنا وزوجتي في زيارة إلى ابنتي وهي في بيت عمها.

أجد "سامر" في زاوية الغرفة قاعداً يتفرس في الوجوه ويتأمل، وأرى "ماجد" يمشي مستنداً على الجدران من ركن إلى ركن، تتلقاه الأيدي وتحمله.

يقول لي جده:

ـ تناولنا اليوم الكباب المشوي، ما شاء الله "ماجد" أكل أكثر مني، "سامر" لم يذق غير لقمتين.

وتحمله جدته، وتقول:

ـ اليوم قبل وصولكم وقف إلى حافة المنضدة وجذب الملاءة، وأوقع مزهرية وكسرها.

وأسأل:

ـ و"سامر"، هل آذاكم في شيء؟

وترد جدته لأبيه:

ـ المسكين، كما تراه، في الزاوية، لا يتحرك، "ماجد" يمشي نحوه ويأخذ ألعابه، ولا يأتي بحركة، ولا يبكي.

وتتكلم عمته، وتقول:

ـ والله إذا حملته أخشى على يده أن تخرج من كتفه، المسكين: جلد على عظم، كيس عظام.

وأقول لهم:

ـ "سامر" فنان، موسيقي، رسام، شاعر.

وتعلق الجدة، جدته لأبيه:

ـ ليكن "سامر" مثلما يريد، نحن عندنا "ماجد"، يكفينا "ماجد".

وتصمت ثم تضيف:

. "ماجد" ضابط عسكري.

وتضيف عمته، وهي طالبة في قسم التاريخ:

. "ماجد" مثل هتلر، سيحتل العالم.

ويعلق جده:

. ما وجدت غير هتلر، نسيت صلاح الدين أو خالد بن الوليد أو هانيبال؟

ترد:

. أعرف، ولكن ما كانوا مثل هتلر، "ماجد" عزيز على قلبي ولوخرب البيت كله، لو قتل كل البشر، ولو دمر العالم كله.

وتتكلم عمته الثانية:

. لو كنا في عصر الملوك كان صار ملك الملوك، يليق به القعود على العرش ومن حواليه الوزراء.

ويتكلم أبوه:

. اليوم سار من أول الأريكة إلى آخرها، وهو مستند إلى الحافة، و"سامر" قاعد يتفرج.

وتتكلم الجدة:

. والله الرجل الحق هو الذي إذا دخل في هذا الباب سده بقامته، "ماجد" سيصير بطل الأبطال.

الحقيقة وضع "سامر" طبيعي، ولكنه يبدو كذلك بالقياس على أخيه التوءم "ماجد"، ولذلك يعجب الجميع بـ"ماجد" أكثر، لأن "ماجد" يسبق أخاه "سامر" بالتدرج في مراحل النمو، لا أكثر.

وتصل عمته الكبرى في زيارة، ومعها ابنتها، واسمها "سمر"، وهي في الخامسة من عمرها.

تركض إلى "سامر"، وضفيرتاها تتوسان وراء ظهرها تحتضنه، تحمله، وتناديه:

. حبيبي.

وتعلق أمها:

. حبي "ماجد"، "سامر" جلد على عظم، لا يُحَب.

وترد سمر:

. لأ، أنا أحب "سامر".

وتكلمها جدتها قائلة:

. أنا أعرف، حبيبك "سامر"، لأن اسمه مثل اسمك.

وترد "سمر" فوراً:

. لأ، أنا أحب "سامر" لأنه لطيف، وحلو، ناعم، أنا لا أحب "ماجد"، أمس شد شعري، وقطعه، غليظ، خشن، وحش، أنا لا أحبه.

ويسألها جدها:

. إذا تزوجت، من سيكون زوجك: "سامر" أو "ماجد"؟

ترد، وهي تلوي شفتها مستهزئة مستنكرة:

ـ "ماجد"؟ أنا لا أقبل بعريس مثل "ماجد"، أنا زوجي "سامر"، "سامر"، وبس.

وتسألها جدتها:

ـ وما هو عمل زوجك؟ زوج المستقبل؟ طبيب مهندس صيدلي ضابط طيار؟

وترد "سمر" بسرعة:

ـ طيار، نعم، ممكن طيار، ولكن

تصمت، تضع سبابة يدها اليمنى في صدغها الأيمن، تنظر إلى "سامر" ثم تتكلم:

ـ أفكر..أفكر....نعم، زوجي في المستقبل ممثل، أو مذيع، نعم، مذيع، لأ، لا أريد الممثل

ويسألها جدها:

ـ لماذا نعم للمذيع ولأ للممثل؟

وترد فوراً:

ـ لأن "سامر" يليق به عمل المذيع، مسرح الشعر، كلامه حلو، قاعد وحده في الاستديو، لا أحب الممثل، الممثل مشاغب، حوله كل يوم بنات.

وتصمت ثم تضيف:

ـ على كل حال أنا زوجي "سامر" وبس، المهم هو "سامر"، أي شيء كان عمله، ما عندي فرق.

ثم تلتفت إلى "سامر" تحتضنه، ويلقي هو بذراعيه عليها، يتشبث بها، فتقبّله.

في الهواء الطلق

أبلغ سن التقاعد، فأجد في الحديقة القريبة من المنزل متنفّساً لي، كل يوم أنزل إليها عصراً، أروِّح فيها عن نفسي، فآوي إلى ركن أقعد فيه، ومعي مجلة أو جريدة أو كتاب، أقرأ أو أتأمل الغادين والرائحين، ولا يزعجني غير باعة القهوة وأوراق اليانصيب أو صانع الأركيلة، كل واحد منهم ملحاح أكثر من الآخر، ومثلهم ذلك الشاب الذي لم يجد أي عمل غير شحن الهاتف الجوال بالوحدات.

هي حديقة عامة، وليست مقهى، لكن لا أعرف كيف تحولت إلى ما يشبه المقهى!

ويتقدم مني اليوم شيخ عجوز، تجاوز السبعين، شعر حاجبيه كثيف جداً وطويل، حتى إنه يظلل عينيه، يقول لي:

. نحن نقعد هناك، على العشب كل يوم عصراً، والإخوة يدعونك للانضمام إليهم، ما رأيك؟

وما يلبث أن يقعد إلى جواري، ويبدأ حديثه:

. لاحظنا قعودك كل يوم تقريباً وحدك، ومعك مجلة أو جريدة، فقلنا في أنفسنا: أنت مثلنا موظف متقاعد، ولو كنت كما يبدو أصغرنا سناً.

ويمضي في الكلام:

ـ الإخوة كلهم من الموظفين المتقاعدين، عدا اثنين، أبو أمجد التاجر، وعصمت بك المختار، والبقية كلهم كانوا من كبار الموظفين، أنا سأعرفك عليهم، من هنا، انظر، هناك، حسن بك، صاحب الكرش المدور، مستشار قانوني، وعلى يمينه الأستاذ عادل مدير مصلحة المياه، أصلع، ولا شعرة في رأسه، وإلى جواره الأستاذ عصام مدير شركة النقل والمواصلات، على عينيه نظارة طبية سميكة، وبجواره العقيد حسان، عقيد متقاعد، جسمه رياضي، وبنيته قوية، آخر منصب شغله مدير السجن المركزي، عصمت بك، كان مختار الحي الغربي وتوابعه، زعيم بحق، شوارب كبيرة، شعر رأسه أبيض، لم تسقط منه شعرة، لو تسمع قصصه وحكاياته، نسيت، أبو أمجد التاجر أول واحد في المجموعة، نحيل، ضامر البطن، كأنه عاش طول عمره من غير أكل ولا شرب، قميصه هذا هو، بني، كالح، لا يغيره لا في صيف ولا شتاء، كل واحد عنده قصة.

ويسند ظهره إلى مسند المقعد، يريح جسمه الضئيل، كمن ستطول قعدته، ويأخذ في الكلام:

ـ تعال اسمع، كل واحد يحكي عن أمجاده وبطولاته، عصمت آغا، المختار، لا يعطي شهادة ميلاد أو وفاة أو بيان زواج إلا بمبلغ كذا وكذا، ويقسم الأيمان، كان يعمل بالعدل، يأخذ من الفقير أقل مما يأخذ من الغني، ومثله العقيد حسان رئيس السجن، لا يسمح بإدخال

الطعام أو الثياب إلى أي سجين إلا بما هو معلوم، تعال، والله حكايات وقصص، ولا حكايات عنترة أيام زمانه.

وأسأله بشكل عفوي، من غير قصد، ولكن سرعان ما أحس بالندم للسؤال:

ـ وأنت ياعم؟

ـ أنا، شكراً لهذا السؤال، أنا كنت سأحدثك عن نفسي، أنا شخصياً أستاذ مادة العلوم، مرة واحدة صرت فيها مدير التربية، بقيت في الإدارة سنتين، الحمد لله ما أخذت رشوة، ولا أذيت أي شخص، أنا أخاف الله ولا أرتكب الفواحش، ولكن كان عندي معلمة تدرس في إحدى القرى، لا أريد تسميتها، وطلبت مني نقلها إلى المدينة.

ويصمت، ثم يضيف:

ـ والله، لا أعرف ماذا أقول لك، ثلاث مرات رفعت لي الطلب، لا تستحق النقل، ما أمضت في الريف غير سنة واحدة، وأنا أكتب مع عدم الموافقة، عنيدة، ظلها ثقيل، كل يوم تراجعني، ولكن المستخدم عندي، الله لا يسامحه، هو المسؤول، مال على أذني وهمس: أستاذ، وصلت الآن إلى بيتك تنكة زيت، هدية من صاحبة هذا الطلب، ولأجل خاطري أنا، أرجو الموافقة.

وينتابه السعال، ثم يتكلم:

ـ والله هذه المرة الأولى والأخيرة في حياتي كلها.

ويصمت ثم يضيف:

ـ لكن، حتى لا أكذب عليك، الآن تذكرت، مرة ثانية، أحد الأساتذة، ولا أعرف المناسبة، أهداني كنزة صوف شتوية، أظن بعد موافقتي على نقله إلى مدرسة قريبة من بيته أو قبل، والله ما عدت أتذكر، وأظن هناك هدية ثالثة، أظن، ولا أتذكر، المهم، أمضيت سنتين، تركت الإدارة وضميري مرتاح، الحمد لله، أنا شخصياً ما أذيت أي طالب أو أي أستاذ.

ومرة أخرى يصمت، ثم يتكلم بلهجة جادة:

ـ طبعاً، إذا مدير إحدى المدارس رفع لي قراره بفصل طالب أو معاقبته فلا بد لي من الموافقة، وإذا رفع لي تقارير عن أستاذ، فلا بد لي من معاقبته، القانون هو القانون، الذي يخالف القانون يعاقب، والله لو كان ابني أو أخي، لكن أنا شخصياً لم أبادر إلى إيذاء أحد.

وأسأله:

ـ وكيف تعرف بعضكم على بعض؟

ـ الأمر كله مصادفة، واحد بعد الآخر، التقينا هنا وتعارفنا.

ـ كان المتوقع اجتماعكم في مقهى فخم أو مطعم فاخر.

ـ أوه، الحقيقة، كلنا مللنا من الكراسي البرامة والهواء المكيف، اشتقنا إلى الأرض، يقول المولى عز وجل: "منها خلقناكم، وفيها نعيدكم، ومنها نخرجكم تارة أخرى"، مللنا من كل شيء رسمي، والحقيقة، لا نريد رؤية أي شيء يذكرنا بالمكاتب، نريد العيش هكذا في الهواء الطلق.

ويعب نفساً، يرسل زفيراً، ثم يلتفت إليَّ ليسأل:

. وأنت؟ مدير أي شركة كنت؟

أبتسم، أتكلم:

. أنا عملت ثلاثة أرباع عمري في الديوان، وفي الربع الأخير، قبل التقاعد بسنيتن صرت رئيس الديوان، ديوان الصادر والوارد، في مديرية البيئة.

يربت على كتفي وهو يعلق:

. وظيفة ناشفة، ما فيها مجال، حتى ما فيها قصص ولاحكايات.

*

أطالع البريد في الصباح وأقوم بتصنيفه، وإذا فيه كتاب بحسم ٥% من راتبي لمدة ثلاثة أشهر، أعيد قراءته مشدوهاً، ألتفت إلى رئيس الديوان، وأقول له:

. منذ عملي هنا معك في الديوان قبل خمس سنوات، ما تأخرت أي يوم ولا دقيقة، ولا تراكم عندي عمل، والمدير السابق طوال خمس سنوات ما وجّه إلي أي إنذار، لماذا هذه العقوبة؟ هل يريد المدير الجديد إثبات حضوره؟ وما مضى على مباشرته العمل في الإدارة غير شهرين؟

وينهض رئيس الديوان، يتقدم نحوي، يستند إلى مكتبي، وهو موشك على الستين، وقد بدأ يتابع معاملة التقاعد، يقول لي بهدوء:

. يا بني طوِّل بالك، سامحه، المسامح كريم، ربنا يعوض، لا شك سيحس بالخطأ ويندم عليه، لا بد سيصحو ضميره ذات يوم.

. لكن أنا...

يقاطعني رئيس الديوان ويقول:

. هل تذكر قبل شهر، حين دخل المدير الجديد علينا فجأة؟

. نعم.

. من كان عندك؟

. ما كان عندي أي شخص.

. لأ، حاول، تذكَّرْ.

. نعم تذكرت، رجل عجوز بعمر جدي، يتابع معاملة لولده، جلبت له الكرسي، ودعوته للقعود إلى جواري، حتى أراجع معاملته.

. وتذكر.

. نعم، طلبت له فنجان قهوة.

. أحسنت، رآه المدير إلى جوارك، يشرب القهوة، فقال في نفسه: لا بد من معاقبة هذا الموظف، فهو يستضيف أهله وأقاربه ويقدم لهم القهوة ويشغل بضيافتهم عن تسيير أمور المواطنين، كان عليك توضيح الموقف.

دهشت، قلت له:

. سأصعد إليه الآن لأوضح له الموقف.

ضحك، رجع إلى موضعه، وقال:

. فات الأوان، لن يصدقك، والقرار صدر، ولا رجعة عنه.

. تشهد أنت على ذلك.

. لن يصدقني، ولن يصدقك، سيظن أني متآمر معك.

. سأرفع كتاب شكوى إلى المدير العام.

. سترفعه عن طريق مديرك المباشر، وفي هذه الحالة سيغضب عليك، وسينتقم منك، والمدير العام لا يصدق الموظف، المدير العام يصدق المدير دائماً، ولو كان غير صادق، ما يهم المدير العام هو سير الأمور.

. والحل؟

ـ حسبك الله، هو وليك وكفيلك، وسينتقم لك منه، أو سامحه وتكتب في حسناتك، سيصحو ضميره ذات يوم، ويحس بخطئه، لا فائدة الآن.

*

أرسل ابني إلى السوق أول مرة لشراء سطل لبن، تقول لي زوجتي:

. **كيف ترسله إلى السوق؟ أخشى**

أقاطعها:

. اطمئني، السوق قريب، خمس دقائق، والبائع يعرفه، رآه معي عدة مرات، وابننا أصبح عمره عشر سنوات، إذا لم يتعلم اليوم فمتى سيتعلم؟

. قد يغشه البائع.

. كيف سيغشه؟ هو سطل لبن، ثمنه معروف.

ويدخل ولدي فرحاً يحمل سطل اللبن، تأخذه زوجتي، تكشف عنه الغطاء، تشمه، تلتفت إلي لتقول:

. هو حامض.

أتذوقه، أدهش، هو حقيقة حامض شديد الحموضة.

زوجتي تحتد، تغضب، تقول:

. سآخذ السطل إلى البائع، لأبدله.

ـ ربما كل اللبن عنده على هذا الشكل، لا تنسي الكهرباء مقطوعة من يومين.

. سيبدله، غصباً عنه، أو يرد الثمن، وإذا لم يرد الثمن، سأرشق به وجهه.

ابني سمير يقول:

. والله أنا لا أعرف.

أقول له:

. ادخل أنت إلى غرفتك، لا تفكر أنت في الموضوع.

وأطلب من زوجتي أن تحضر قطعة قماش بيضاء نظيفة، وأرجوها تصفية اللبن، وما تبقى منه يمكن تناوله.

وأقول لزوجتي:

. لا تجعلي الولد يحس بالخيبة والإحباط.

. ولماذا لا تحمل أنت السطل إلى البائع، ما دمت تعرفه ويعرفك؟

. أنا زبونه، وهو يعرفني حق المعرفة، ويعطيني دائماً أجود أنواع اللبن والحليب والجبن، لا أريد معاتبته، لا أريد خسارة صحبته.

بعد ساعتين تقول لي زوجتي:

. اللبن بعد تصفيته شديد الحموضة، ولا يمكن تناوله.

أقول لها:

. ارميه في القمامة.

. خسارة، ليتني ما سمعت كلمتك، ليتني حملت السطل وضربت به وجهه.

أقول لها:

ـ سامحه الله، سنجد الثواب عند الله، ولا بد سيعاتبه غيرنا، وسيشعر بتأنيب الضمير.

تعلق زوجتي:

. أنت طيب زيادة.

. هكذا ربتني جدتي.

*

أرجع من المدرسة وأنا أكاد أسقط من الجوع، وتسألني أمي:

. نسيت تأكل صندويشتك؟

أكاد أبكي، تضمني إلى صدرها، أقول لها:

. سرقها عريف الصف.

. وما شكوته إلى المعلمة؟ وما ضربته؟

. هو أكبر مني، طويل وقوي وجسمه ضخم.

وتتدخل جدتي لتقول:

ـ لأ حبيبي، هو ما سرقها، هو زميلك، ويحبك، أنا قي الغد سأضع لك صندويشتين في حقيبتك واحدة لك، وواحدة له.

وأرد:

ـ لأ، هو سرقها، وهددني، وقال إذا شكوته سيضربني في الطريق.

وتتدخل أمي:

. أنا سأذهب إلى المديرة، وأشكوه، ما اسمه؟

وتتدخل جدتي مرة ثانية:

ـ لا، لا ضرورة، هو يحبك، ويمزح معك، ومن الضروري مسامحته، المسامح كريم، هو اشتهى الصندويشة، وأنا سأجهز له صندويشة مع صندويشتك.

*

العجوز يتكلم:

. دائماً نرى معك مجلة أو جريدة، في كل الحديقة لا أحد مثلك، معه مجلة أو جريدة، أنا لما كنت على رأس عملي في مديرية التربية، كانت تأتيني كل يوم الجرائد، ما كنت أفتحها، كنت أعطيها للآذن، هل احترفت أنت السياسة بعد التقاعد؟ نحن بصراحة قرفنا من كل شيء.

أرد وأنا أضحك:

. لا سياسة ولا أي شيء، هي مجرد هواية وحب للمطالعة.

يضع يده على فخذي، يضغط، ثم ينهض بصعوبة، يهم بالمغادرة، ولكنه يلتفت إلي ويقول:

. نسيت، سأحكي لك، وأنا في عملي بالإدارة أنجزت أكبر أمرين في التربية والتعليم، لا على مستوى القطر، ولكن على مستوى العالم كله، أستحق بهما نصب تمثال لي، وتسميتي فيلسوف التربية والتعليم، مثل جان بياجيه مثلا، اسمع سأحكي لك.

ويقعد على طرف المقعد، قعدة غير مريحة، مؤقتة، كمن سيقوم بعد لحظة، ويتابع الكلام:

ـ أصدرت أول تعميم على مدارس المحافظة، ويتضمن رفع كرسي المعلم من قاعة الصف، هل تعرف لماذا؟ هذا يساعد على نشاط المعلم، حتى لا يقعد فيتكاسل فينعس فينام، عنده استراحة بين كل حصتين، يمكنه القعود في غرفة المدرسين، هل تعرف؟ أنا وفرت على مديرية التربية ثمن آلاف الكراسي؟ احسب كم مدرسة في المحافظة وكم قاعة صف في كل مدرسة، ثم أصدرت التعميم الثاني، نعم.

ويحك جبينه، يرفع حاجبيه الكثين، ثم يتكلم:

. والله نسيت، على كل حال، سأتذكره بعد قليل، هل تعرف؟ هذا التعميم والتعميم الذي قبله تبنَّتهما وزارة التربية، وتحوَّل كل تعميم إلى

قرار وزاري، قلت لك، والله لو كنت في أوربة لكان اليوم لي تمثال في هيئة الأمم المتحدة.

وينهض، يمضي بضع خطوات، ثم يرجع، ليقول:

. والله لو صرت أنا وزير التربية أو رئيس الوزراء لكان أول قرار أصدره هو قطع راتب المعلمين في شهري الصيف، هل تعرف السبب؟ أنا سأقول لك.

ويرجع إلى المقعد، يجلس على طرفه، كمن يتهيأ للنهوض، ويتكلم:

. أولاً، المعلم في الصيف لا يعمل في أي عمل، وثانياً، في العام الدراسي عنده العطلة الانتصافية خمسة عشر يوماً، وعنده عطلة أربعة أيام قبل الامتحان الفصلي الأول، وأربعة أيام قبل الامتحان الفصلي الثاني، احسب كم يوم عطلة عنده؟ طبعاًعدا العطل الرسمية.

ينهض، يقف، يتكلم وهو يشير بيديه:

. والله ثم والله، لو كنت وزير الدفاع لأمرت بسوق المعلمين في الصيف إلى الجبهة لحفر الخنادق.

أسأله:

. هل تحس اليوم بشيء من الندم؟

يصرخ محتداً وهو يسأل باستنكار:

. أنا؟ أنا أحس بالندم؟ ولماذا؟

أتكلم بهدوء:

. لا أقصد أنت وحدك بالذات، أقصد الأصحاب هناك، هل يحس أحدهم بتأنيب الضمير، أو يشعر بالندم؟

العجوز يقهقه، ينتابه سعال حاد، يأخذ نفساً، ثم يتكلم، وهو يرفع حاجبيه الكثَّين مستنكراً:

ـ عن أي شيء أنت تسأل؟ ضمير؟ وماذا فعلت أنا أو هؤلاء؟ سؤالك غريب؟ هل نحن زناة؟ قتلة؟ لصوص؟ خونة؟ كفرة؟ ماذا فعلنا؟

أضع يدي على كتفه، أتكلم بلطف:

. سامحني ياعم، والله لا أقصد.

*

وتمر أمامنا سيدة تبدو في الخمسين، الأحمر على شفاهها فاقع، الأصباغ تملأ وجهها، تحمل حقيبة يد صفراء بلون شعرها، وهي ترتدي تنورة خضراء لا تكاد تبلغ ركبتيها، وفوقها قميص أسود ضيق مشدود على صدرها الممتلئ.

يميل عليَّ العجوز، ويهمس:

. هذه معروفة، طول عمرها.....أستغفر الله العظيم، وصلت إلى هذا العمر، وما تابت، لا أعرف كيف تعيش، كأنه ما عندها ضمير يؤنبها، حسبي الله ونعم الوكيل، لا تظنها صبية، أنا أعرفها يوم كان عمري عشرين سنة، ما نجا شاب من شرها.

ويصمت، كمن يفكر، ثم يضيف:

ـ على كل حال، ما أظنها هي نفسها، أنا لما كنت في العشرين، كان هي عمرها في الثلاثين، أنا بدأت أخرف، لو كانت هي نفسها، كان عمرها الآن ثمانين سنة، ما هي نفسها، هي واحدة ثانية مثلها، في كل زمان هذا النوع موجود، نصيحتي لك، لا تنظر إليها، وإلا جرت على رأسك المشاكل.

العجوز فجأة يوليني ظهره ويمضي، ولكن ما يلبث أن يلتفت، ويرجع ليقول:

ـ اعذرني، أنا انفعالي، ومشيت من غير استئذان، سامحني، قصصي هذه أعدتها على هؤلاء الأصحاب عشرين مرة، لكن أنت بالنسبة إلي شخص جديد، أسمعك قصصي أول مرة، وأنا ارتحت إليك، صدقني في البيت لا أجد من أتكلم معه، أحياناً أكلم الحيط، سامحني، أثقلت عليك، على كل حال تعال، انضم إلينا، والله لن تندم، ستسمع كل يوم قصة جديدة.

*

فور ابتعاد العجوز، أطوي الجريدة، أنهض من مقعدي، أسير نحو باب الحديقة.

*

وتدوي طلقة، وتسقط يمامة في فناء الدار، تحت شجرة التوت الكبيرة، وهي ترفرف بجنحها المصاب، والدم ينزف منه. تسرع إليها

أمي، تحملها، ويقرع الباب، وتسرع إليه جدتي، وإذا شاب في الباب يقول لها:

ـ خالة، سقطت حمامة عندكم، أعطيني هي.

وترد:

ـ ابني، والله حرام صيد الحمام، هذه الحمامة بَنَتْ عشها في مدخل الغار، لما اختبأ فيه الرسول، وحمته من المشركين.

ـ لا يا خالة، هذه الحمامة غير تلك الحمامة، بينهما خمسة آلاف سنة، وربنا حلل صيد البر والبحر.

ـ يا بني نحن في المدينة، لا في بر ولا في بحر.

وتلتفت إلى أمي، وهي تحمل الحمامة بين يديها، وقد أحضرت القطن والدواء الأحمر، تأخذها جدتي من بين يدي أمي، مع القطن والدواء الأحمر، وتناولها للشاب وهي تقول:

ـ خذ يا بني، الله يرضى عليك، أمانة، جرب مداواة جرحها، ولا تحاول مرة ثانية صيد الحمام، لها روح مثلها مثلك، ولها فراخ.

أمي تقول لجدتي:

ـ هذا الشاب ابن حرام، دائماً يصطاد الحمام والعصافير، كيف أعطيته الحمامة؟ كنت أنا دوايت جرحها.

ـ أنا عن قصد أعطيته الحمامة المجروحة، حتى يحس بألمها، ويحن عليها، وحتى يصحو ضميره، يا بنتي كل إنسان عنده ضمير، ولا بد من صحوة الضمير.

وأركض إلى السلم، أصعد إلى السطح، أطل على الزقاق، وسرعان ما أنزل، وأقول لجدتي:

ـ الشاب ملص رقبة الحمامة، ورمى رأسها، وكب القطن والدواء الأحمر.

وترد جدتي:

ـ شاب جاهل، الله يهديه، اقرأ أنت في كتابك، ولا تفكر في الأمر.

ثم أسمع جدتي تقول لأمي:

ـ جارنا أبو خالد نجار، سأطلب من جارنا قطع أغصان الشجرة المطلة على الزقاق، حتى لا يبقى مجال لهذا الشاب للصيد في الزقاق، وإذا تطور الأمر، قطعت الشجرة كلها، أنا أخاف على ابني، زوجك، هذا الشاب أعرفه، هو من عائلة كبيرة، وما عندها لا دين ولا أخلاق ولا عقل، جد العائلة كان مختار الحي كله.

*

أغادر الحديقة، أسير نحو البيت.

لن أشتري لابني بسام بعد اليوم أي مجلة أو أي كتاب.

بعد يومين تبدأ إجازة الصيف، وينتهي العام الدراسي، ولدي بسام نجح إلى الصف الخامس، سأضعه أجيراً عند أي حلاق، ليسمع القصص والحكايات وليتعلم، بل سأضعه أجيراً في السوبر ماركت ليمسح الزجاج ويكنس الأرض ويزيل الغبار عن البضائع، سأضعه معاوناً في

سيارة سيرفيس، رأيت أولاداً أصغر منه يعمل الواحد منهم مع أبيه في جمع الأجرة من الركاب، سأرمي به هنا في الحديقة، ليعمل مع صاحب الأراكيل، يحمل المنقل وفيه قطع الفحم المتوهجة، وينادي للمدخنين: "ناره ناره"، حتى يبح صوته.

أريد له أن يتعلم الشقاء والتعب، ليرى الحياة.

تربية جدتي لي كانت غير صحيحة، الحياة تحتاج إلى أسلوب آخر مختلف.

*

قبل وصولي إلى البيت أمر بمكتبة، قريبة من المنزل، صاحبها صديقي، أشتري عدة صحف وبضع مجلات، وأنا في المكتبة يدوي الرعد ويقعقع فجأة، وينسكب المطر كأن نهراً ينصب من السماء.

أنا والبائع نقف في الباب نتأمل الشارع وقد غمره السيل، والناس يتراكضون تحت المطر.

البائع يقدم لي كرسياً، وهو يقول:

. تفضل، اقعد حتى ينقطع المطر، هذا المطر ينصب دفعة واحدة، ثم ينقطع، لن يطول.

. لو كنا في نيسان، لكان من المتوقع هذا المطر، ولكن نحن في أواخر أيار، قبل لحظة كانت الشمس ساطعة ولا غيمة في السماء.

ـ كل شيء متوقع، أنا أذكر قبل عدة سنوات، وفي مثل هذا الوقت من العام، أو أظن بعده، في أول حزيران، كان الطلاب راجعين

من امتحان الشهادة الثانوية، نزل برَد من السماء، كل بردة مثل حبة الجوزة أو أكبر، وكثير من الألواح الزجاجية في السيارت تكسرت، وخاصة الألواح الأمامية.

أعلق، وأنا أتأمل المتراكضين تحت المطر:

ـ الحديقة القريبة من هنا الآن غرقت في السيل، ولو نزل برد من السماء مثلما قلت لكان قتل كل الرجال الكبار القاعدين في الحديقة، وأظنهم الآن غرقوا قبل نهوضهم وخروجهم من الحديقة؟

البائع يضحك، ويعلق:

ـ الحديقة لن تغرق، أنا أتوقع غرق السيارات في النفق تحت الجسر.

يخف هطول المطر، يتحول إلى رذاذ ناعم، أعلق:

ـ لا الصيف صيف، ولا الشتاء شتاء، تغير كل شيء.

ـ نعم، هذا كله بسبب تغير المناخ، المعامل تنفث كل يوم في الفضاء آلآف الأطنان من غاز الكربون، وتصب في الأنهر والبحار والمحيطات آلآف الأمتار المكعبة من النفايات والسموم.

أضيف:

ـ نعم، صحيح، ولا ننسى فساد الأخلاق والضمائر.

يعلق البائع:

ـ لا علاقة للأخلاق بتغير المناخ، الطبيعة لها قانونها، وللمجتمع قوانينه.

أنهض، أريد الخروج قبل أن يسألني عن نفسي، أو حتى قبل أن أتورط في الثرثرة عن حياتي، مثل ذلك العجوز، أو حتى قبل أن يتحول الحوار الهادئ إلى نقاش.

أقول له:

ـ أخبرتَني قبل أسبوع عن قرب وصول كتب ومجلات جديدة للأطفال مع بداية العطلة الصيفية؟

. نعم، وصلتني، ووصلتني أيضاً أقراص مرنة فيها أفلام تعليمية للأطفال.

ويعرض عليَّ مجموعة كبيرة، أدهش لوفرة ما وصل إليه، أنتقي بعض الكتب والمجلات والأقراص.

خيط المطر ينقطع، تتألق الشمس، أقول للبائع:

. غداً سأمر بك ومعي ولدي بسام لينتقي أيضاً بنفسه.

البائع يسأل:

. هل بيتك قريب من هنا؟

. نعم، بعدك، في البناء الخامس، على هذا الرصيف.

. اسمح لي باقتراح.

. تفضل.

. أرسل ابنك وحده، لينتقي بنفسه ما يشاء، حتى يحقق ذاته، ويحس بوجوده، وتمر أنت بعد ذلك لتدفع لي ثمن ما أخذ، حتى لو

أرسلت معه أي مبلغ، ليس في الأمر أي مشكلة، لن أغشه، دعه يتعلم بنفسه، ويمارس الحياة.

الجد إسماعيل لا يركب البحر

يظهر المركب من بين الأمواج، ثم يأخذ في الاقتراب بهدوء، وقد أطفأ البحار حبيب المحرك، وصمت هديره، يقفز ابنه هاني إلى الشاطئ.

ينهض الجد إسماعيل من كرسيه الخشبي العريض، الذي قدّمه له أحد البحارة، يمشي بخطوات هادئة، مشدود الظهر، رافع الرأس، ويده قابضة بقوة على يد حفيده، الذي يحاول الإفلات منه والانطلاق نحو أمه، وهو يصيح:

. ماما، ماما.

يترك يد حفيده، فينطلق، يتلقاه أبوه، وهو أول من نزل من المركب، بعد هاني، يحمله، يقبله، ثم يناوله إلى أمه، تتلقاه بين ذراعيها، يطوق جيدها بذراعيه، تقبله، ثم تتناوله منها الجدة، تقبله، ثم يحمله أبوه ويمشي به.

حبيب البحار يقول للجد:

ـ أول مرة أنا أشعر بمتعة الرحلة، البحر هادئ، والموج خفيف، أحلى رحلة، ما كان في ضرورة للخوف على روحك، البحر لا يبلع إلا الخالص عمره.

ويعلق ابنه هاني:

. العجوز دوماً يخاف على روحه أكثر من الشاب.

ويقهقه أربعة من البحارة كانوا جالسين على حافة مركب آخر، وهم ينفثون دخان السكائر.

الجد إسماعيل يلتفت إلى هاني، يرمقه بنظرة، تفتر شفتاه عن ابتسامة هادئة، ثم يمضي، رافع الرأس مشدود الظهر، ثم يلتفت إلى حفيده، يناديه:

. تعال مهند، هات يدك، لأتوكأ عليك.

ويسرع مهندإلى جده، يمنحه يده الصغيرة الناعمة، فيتناولها الجد بيده الكبيرة القوية المعروقة. زوجته العجوز تمشي إلى جواره، تاركة ابنتها تسير وراءها، ويدها تحت إبط زوجها. ويمضي الجميع، نحو الفندق.

كان يوماً جميلاً من أيام نيسان في نصفه الثاني، السماء صافية، والشمس ساطعة، والجو دافئ، ولكن نيسان لا يؤتمن، لا يعرف أحد كيف يكون نهار غد.

*

قبل أسبوع واحد فقط وصلت ابنته سلمى مع زوجها وحفيده مهند من باريس، بعد غياب خمس سنين. لم ير الجدان العجوزان حفيدهما إلا بالصور، وعبر شاشة الحاسوب أو شاشة الجوال، يكلمهم، يكلمونه، تابعوه منذ ولادته، تابعوه وهو يكبر يوماً بعد يوم. فور رؤيته لهما، اندفع نحوهما، خارجاً من بوابة القادمين في المطار، حمله جده

بين ذراعيه، وأخذ يقبله ويقبله، لم ينفر الحفيد من جده، هو متعلق به ومشتاق إليه، ربما أكثر من شوق جده إليه، حتى لحيته البيضاء الطويلة الخشنة الشعر لم تزعجه، بل أخذ يقبلها ويداعبها بأصابعه الناعمة. وأصبح لا يأكل إلا بيد جده، ولا يأوي إلا إلى حضن جده، ولا ينام إلا بجوار جده وفي سريره.

ثم قرر صهره فاروق أن يمضي بهم في رحلة إلى طرطوس، يمضيان فيها بضعة أيام يستمتعان بشاطئها الجميل، وجوها الصافي. النصف الثاني من نيسان أجمل الفصول، وأحلاها، الجو بدأ يدفأ، لا حر ولا برد، قد تتجمع بعض الغيوم، وقد تهب نسمات نشطة، ولكن لا برد، وقد تنهمر أمطار غزيرة لسويعات، ثم تشرق الشمس وتصفو السماء.

استقبلهما العامل في فندق برج شاهين مرحباً، وخص الأسرتين بغرفتين مطلتين على البحر، في الدور الخامس. مهند لا ينام إلا في غرفة جده، وفي سريره، وفي مطعم الفندق لا يقعد إلا في كرسي مجاور لكرسي جده. ومن أجل مهند حرم الجد نفسه من متعة كان يتمناها. قعد في الشرفة وعلى يمينه زوجته، وعلى يساره صهره فاروق، وإلى يمين فاروق زوجته: ابنتهما سلمى، ومهند يركض في الشرفة، ويحاول تسلق درابزينها، ويطلب الجد لنفسه أركيلة، ويحملها إليه النادل، ثريا لؤلؤية، كأنها عروس، ويأخذ الجد في التعامل معها، ويدهش مهند، تشده القرقرة، يأبى إلا أن يأخذ خرطومها بيده، ويسمح له الجد أن يجرب مرة، فينفخ

في الخرطوم، بدلاً من أن يمتص، وتقرقر الأركيلة، ويسعل ابن السنين الأربع، ويستدعي الجد النادل فوراً، يرجوه أن يرفع الأركيلة.

واليوم كانت الرحلة البحرية إلى جزيرة أرواد.

*

وتقلَّب مهند في الفراش، أحس أن جده ليس إلى جواره في السرير، نهض فزعاً، ركض إلى سرير جدته، وهو ينادي:

. جدي، جدي راح.

شدته جدته إليها، ضمته إلى صدرها، طوقته بيديها، ألقت على سرير الجد نظرة، قالت له:

. جدك في الحمام يتوضأ، لصلاة الفجر.

نسمات رطبة ندية، عبقة برائحة البحر وملوحته، تتسلل عبر النافذة المفتوح جزء منها، يمازج النسمات هدير الموج، نهضت، أغلقت النافذة، ثم التفتت إلى الحمام، لا ضوء ولا حركة.

اقتربت من باب الحمام، نقرت بأصابعها على الباب، فتحته، لا أحد. هل يعقل أن يذهب إلى الصلاة في الجامع، وهل يعرف الطريق؟ هذه عادته، يأبى إلا أن يؤدي الفجر في الجامع، ولكنه هنا لا يعرف أحداً، ولا أحد يعرفه، قد يتعثر، قد تنزلق قدمه، تشم رائحة المطر، ألا تقبل الصلاة إلا في الجامع؟

ترجع إلى السرير، تحتضن حفيدها، تضمه إلى صدرها، وتغفو قبل أن يغفو هو بين يديها.

*

النور يملأ الغرفة، تنهض الجدة، تفاجأ، مهند ليس إلى جوارها، تهبط عن السرير، مهند في الشرفة، يطل من الدرابزين على البحر، رذاذ من المطر الناعم يبلل شعره ووجهه، تسرع إليه، تحمله، تمسح رأسه، تغسل وجهه ويديه. ترفع سماعة الهاتف، تتصل بالاستعلامات تسأل عن زوجها، فيخبرها العامل أن زوجها غادر الفندق قبل الفجر، تتصل بغرفة ابنتها، يأتيها صوت فاروق صهرها:

ـ صباح الخير، أنا قلقة، عمك ذهب إلى الصلاة قبل الفجر، الشمس طلعت، حتى الآن ما رجع.

ـ لعله الآن في مقهى الفندق يتناول فنجان قهوة، سأتصل بالاستعلامات لأسأل عنه.

مهند يبكي وهو ينادي:

ـ جدي، جدي، أين جدي؟

ويسرع الأربعة إلى الشاطئ للبحث عن الجد. حاولت سلمى أن تبقى مع ابنها في الفندق، ولكن أبى مهند إلا أن يذهب مع جدته وأبيه للبحث عن جده، فخرجت معهم سلمى.

غيوم كثيرة تملأ السماء، غيوم سود كثيفة قريبة، وسحابات بيض بعيدة، وبين الغيوم والسحب فرجات تنساب من خلالها أشعة الشمس المدهشة، كل شيء يوحي باحتمال التغير بين لحظة وأخرى.

مهند يريد أن يترك يد جدته ليركض، ولكن أمه تمسك بيده الأخرى، وهو يسأل:

. أين ذهب جدي؟ لماذا لم يأخذني معه؟

ويؤكد الصهر:

. أظنه ذهب إلى مقهى شعبي ليدخن الأركيلة، رأيتم كيف حرمه مهند أمس منها.

*

على الشاطئ أربعة من البحارة يمضون وقتهم في لف السكائر ونفث دخانها، يصل إليهم هاني، لا يرى والده بينهم، ولا يرى مركب أبيه بين المراكب، يسأل مرتبكاً:

. أين أبي؟

ويرد برهوم ساخراً:

. ما عنده زوجة ثانية، ولا عنده عشيقة، إلى أين سيذهب؟ ذهب إلى أرواد.

يسأل بعصبية:

. **وحده؟**

. لأ، مع راكب.

. ومن هذا الراكب؟ لا ركاب اليوم.

يتكلم جرجس:

. **الراكب العجوز الذي رفض الركوب مع أسرته يوم أمس.**

يضرب هاني بقدمه علبة تبغ فارغة، يشتم، ثم يقول:

ـ كيف سمحتم له بالذهاب مع راكب عجوز خرف جبان مجنون؟ ما حاول أحدكم منعه في هذا مثل هذا الجو.

ويتكلم جرجس:

ـ الطمع، الطمع يا هاني، هذا العجوز الخرف المجنون الجبان أعطاه ثلاثة آلاف، رفض أن يذهب مع أي واحد منا، لا يريد إلا الذهاب مع البحار حبيب.

ويتكلم أبو أيهم شيخ البحارة بصوته الأجش:

ـ قلنا له، اليوم هو ١٧ نيسان، عطلة عيد الجلاء، لا موظف يأتي من أرواد، ولا عامل، وهذا هو يوم انقلاب فصلي، ونحن نعرف، هذا يوم العواصف والصواعق والأمواج العالية والأمطار.

ويتكلم هاني:

ـ وإذا ضربته الصاعقة، راح هو والمركب والآلاف الثلاثة.

ويتكلم أبو أيهم شيخ البحارة:

ـ لا، اطمئن، أبوك ترك معي المبلغ كله، قال إذا غرقتُ وراح المركب، هذه الآلاف الثلاثة لابني هاني، خذ، خذها مني.

ـ لا أريد الثلاثة، ولا العشرة، أبي مجنون.

ويركض نحو البحر، يقفز إلى الموج، ثم يأخذ بالسباحة، الموج يعلو، يغط، ولا يكاد يظهر.

يركض جرجس وراءه، ينادي:

ـ هاني، ارجع.

يرجع، والماء يقطر منه، يمشى بخطا منكسرة، يتوجه إلى أبو أيهم:

ـ عمي أبو أيهم، أنت شيخ البحارة، أعرني مركبك.

جرجس يضحك:

ـ هل سمعت بمن يعير مركبه؟

هاني يلح على شيخ البحارة:

ـ خذ المبلغ كله، وأعرني مركبك، أريد اللحاق بأبي.

أبو أيهم يتكلم بصوته الأجش:

ـ لا ضرورة للخوف.

ـ بصراحة يا عمي، أنت تعرف، والدي تأتيه نوبات صرع، أخشى إذا جاءته نوبة، وهو وحده.

شيخ البحارة يتكلم:

ـ نسيت، معه راكب.

ـ لكن هذا الراكب ابن حلب، ولا يعرف أي شيء لا عن السفن ولا عن البحر.

*

يصل فاروق، تلحق به سلمى وأمها، يتوسطهما مهند، كل منهما تمسكه بيد.

على الفور يتلقاهم هاني قائلاً:

ـ عجوزكم جن جنونه، ركب مع والدي في هذا الجو إلى أرواد.

*

الجد إسماعيل يلف خرطوم الأركيلة حولها، يأخذ رشفة من فنجان قهوته، ثم ينهض، يهتف بحبيب:

ـ هيا، تأخرنا.

حبيب يرشف ما تبقى في فنجانه، يسحب نفساً عميقاً من أركيلته، ثم ينهض، ينفث الدخان، ويقول:

ـ آه ياعمي، طول عمري أعمل بين أرواد وطرطوس، أنقل الناس ليقعدوا هنا في هذه المقاهي المطلة على البحر، وأشتهي مثل هذه القعدة، عمري كله شقاء وتعب، إيه، أتمنى لو أبقى حتى المساء.

ـ لكل شيء نهاية، الناس هناك في انتظارنا، القلق أكلهم، أنا طلعت من الفندق قبل الفجر، ولا أحد يعرف إلى أين ذهبت.

ويتجهان معاً إلى المركب.

ـ هل ملأت خزان المحرك؟

ـ اطمئن، ابني يملؤه دائماً في آخر النهار، وعندي احتياط.

ويشد حبيب الحبل، يهدر المحرك وينطلق المركب.

ـ إي عمي، حدثني، لماذا ما ركبت معي أمس؟ هل تخاف على روحك؟

ـ لأ، لا يموت الإنسان إلا عندما ينتهي عمره.

ـ أنت تخاف من الموت في البحر؟

ـ لأ، أبداً، حيث يأتي الموت فلا مفر منه، والموت بالغرق شهادة، البر والبحر واحد، من الأرض جئنا، وإليها نعود، ومنها نبعث، والماء أصل كل الأحياء، يقول تعالى: "وجعلنا من الماء كل شيء حي"، ويقال الإنسان خرج من البحر.

يضعف صوت المحرك، يخمد، ينطفئ.

يقفز حبيب إلى المحرك، يفتح غطاء الخزان، يضرب المحرك بيده، يشتم.

ـ هذا وقتك يا ابن الحرام؟

ويسأل العجوز:

ـ نفد الوقود؟

ـ لأ، الخزان مليان، وعندي احتياط، ولكن هذا المحرك ابن حرام.

ـ اسمع مني، أطفئه، واتركه، أنا أشتهي التجذيف، هات المجاذيف يالله، بسرعة.

يثبّت حبيب أربعة أزواج من المجاذيف، يقعد والعجوز متقابلين، يأبى العجوز إلا أن يقعد وظهره إلى طرطوس، ليجذف باتجاهها في حركة عكسية، ويترك لحبيب أن يجذف باتجاه طرطوس ووجهه نحوها.

الغيم الأسود يملأ السماء، لا فرجة تطل منها الشمس، الريح تعصف بهم من ورائهم، من عمق البحر، تضرب جبل الحصين المطل على طرطوس، ثم ترتد إليهم، الريح تعصف بهم من وجوههم ومن ظهورهم، تلعب بهم، تريد أن ترجع بهم إلى أرواد، ثم تريد أن تقذف بهم إلى طرطوس، والزورق يتأرجح، والمحرك نائم، يود حبيب لو يقتلعه ويقذف به إلى القاع، والمجاذيف على الرغم من جهدهم لا تصنع شيئاً، وينسكب المطر.

المطر الغزير والموج العالي يملأان قاع المركب، حبيب يتكلم:

ـ عمي، أرجوك، اترك التجذيف، هو صعب عليك في هذا الجو، حاول إفراغ الماء من قاع المركب، حتى لا نغرق.

ـ لا تخف، هذا الماء في القاع يجعل المركب أثقل، ويحميه من الانقلاب.

ـ سأجرب تشغيل المحرك.

ـ اقعد، لا تجربه، أنا مسرور بالتجذيف، من زمان وأنا أشتهي التجذيف.

ـ لا أصدق أنك من حلب، أنت في الأصل من اللاذقية، أو ربيت فيها، أو أديت الخدمة العسكرية في البحر، ما تعبت، وما أصابك دوار البحر، وها أنت تجذف أفضل مني، قلت لي ونحن على البر: إذا لم تحملني إلى أرواد سأذهب سباحة، لم أصدق، ولكن الآن صدقت.

الجد إسماعيل يتكلم والمطر يغسله:

. كل يوم عندي ساعة سباحة في الصباح، وأنا في السبعين من العمر.

. ولكن لم تقل لي حتى الآن: لماذا لم تركب معي أمس، ثم قررت الركوب في مثل هذا اليوم العاصف، ورفضت الركوب مع أي بحار، إلا معي أنا؟

. حاول أن تعرف؟

. لأنني قلت لك عندما وصلنا إلى الشاطئ: لماذا تخاف على روحك؟ البحر لا يبلع إلا الخالص عمره؟ أو لأن ابني قال لك: العجوز يخاف على ما بقي له من عمر، والشاب لا يخاف؟ سامحنا، ابني شاب مندفع، وأنا قلتها بعفوية ومن غير قصد.

. والله ما غضبت منك، ولا من ابنك.

ـ فور وصولي سيعتذر إليك ولدي، وسأرد إليك الآلاف الثلاثة، لن آخذ أي ليرة، هذه أجمل رحلة في حياتي، أنا تعلمت منك أشياء كثيرة.

. لأ، المبلغ حلال لك، وأنا سامحتك أنت وابنك.

. نعود إلى موضوعنا، قل لي لماذا ما ركبت يوم أمس، وركبت اليوم؟

ـ سأقول لك، ولكن جاوبني أولاً: متى بدأت تأخذ معك ابنك هاني في هذا المركب؟

حبيب يرسل زفرة طويلة، وقد بدأت حدة المطر تخف، ثم يقول:

. إيه، ماذا أحكي لك؟ ابني عمره الآن حوالي العشرين، هو ابني الوحيد، ما عندي غيره، لم أرزق به إلا بعد ما صار عمري أربعين سنة، أمه ما سمحت لي بتربيته كما يربي كل البحارة أولادهم، هل تصدق أنه ما ركب معي البحر إلا لما صار عمره تقريباً عشر سنين؟

. والسبب؟

. السبب أمه، كما قلت لك، كانت تخاف عليه من جو البحر، تقول لي: البحر رطوبة وشمس حارقة، كانت تخاف عليه من دوار البحر، كانت تخاف عليه حتى من زعيق البواخر.

ويصمت ثم يضيف:

. وبصراحة، أنا كنت أخاف عليه من الحوادث، المراكب هنا كثيرة، كل يوم لا بد من حادث اصطدام أو انقلاب، ولكن هذا كله خطأ، نحن هنا في طرطوس أو في أرواد نربي أولادنا من صغرهم على السباحة وركوب البحر، هل تعرف أن كل بحار هنا يعوِّد ابنه على البحر ويعلمه السباحة وهو ابن خمس سنين، أنا صرت في عيون البحارة حالة شاذة، والله صرت أخجل من نظراتهم، ولكن صبرت حتى كبر ابني وصار عمره عشر سنين، عندها أخذته معي إلى البحر،

البحارة قالوا لي مازحين: من أين لك هذا الولد؟ والشيطان تعلم السباحة بسرعة.

الجد العجوز يعلق:

. أنا لا حظت هذا، أنت تخاف عليه حتى الآن، عند ذهابك بأسرتي، أراد ابنك دفع المركب، أنت قلت له: لأ، ابتعد، أنا سأدفعه"، وعند جر حبل المحرك، حتى يقلع، أنت قمت بجرِّه، ما تركت له جره، هل هذا صحيح؟

ـ نعم، صدقت ياعمي، هذا صحيح، أنا حتى الآن أخاف عليه، وهذا غلط مني، ولكنه القلب، ماذا أفعل؟ أنا أرى اللوم والعتب في عيون البحارة، ولكن أي واحد منهم لا يعرف شعور الأب عندما لا يكون عنده غير ولد وحيد، ولم يرزق به إلا بعد صبر العمر كله.

ويصمت ثم يضيف:

. وأنا بصراحة، تأتيني بين حين وآخر نوبات صرع، وما كنت أريد لابني أن يكون معي في البحر وهو صغير، ماذا سيفعل إذا جاءتني النوبة؟ لذلك، انتظرت حتى كبر.

المركب يقترب من الشاطئ، المطر ينقطع، تطل الشمس من فجوة في السماء، ينتصب قوس قزح مكللاً جبل الحصين المطل على طرطوس.

يسمع أصوات هتافات، يلتفت الجد، زوجته وابنته وصهره على الشاطئ يلوحون له بالأيدي، صهره يحمل على كتفه الحفيد، وهو يلوح

بيده لجده، يقف الجد إسماعيل في مقدمة المركب، يلوح لهم بيديه، يهتف منادياً:

. مهند.

ويرجع العجوز إلى موضعه قبالة حبيب، يتابع التجذيف، يصمت قليلاً، ينظر في عيني حبيب، ثم يسأله:

. انظر إلى حفيدي، كم تقدِّر عمره؟

. أربع سنين.

العجوز يعلِّق على كلام حبيب:

. ابنك ما ركب البحر إلا لما صار عمره عشر سنين، وأنت بحار، ولا شك ابن بحار، كيف تريد لحفيدي الأول ركوب البحر، وهو ابن أربع سنين؟ أنا لأجله ماركبت أمس معكم، وحرمت نفسي النزهة البحرية وزيارة أرواد مع زوجتي وبنتي وصهري، وبقيت على الشاطئ من أجل حفيدي، خوفاً عليه.

ثم يقول لحبيب بصوت متعب:

. أنا عندي ثلاثة أولاد وهذه البنت، الله يحفظ ابنك هاني، أحد أولادي الثلاثة جاء مع طلاب المدرسة في رحلة إلى البحر، في شهر نيسان، في مثل هذا الوقت، كان عمره خمسة عشر عاماً، في المرحلة الثانوية، ونزل إلى البحر ليسبح...

وتنحدر من عينه دمعة.

*

إلى الفندق يرجع الجد مع زوجته وحفيدهما مهند يمشي بينهما كل منهما يمسكه بيد.

ووراءهما تمشي ابنتهما سلمى لصق زوجها فاروق.

الكيس الأسود

حوالي الحادية عشرة ليلاً، قرع الباب، نظرت إليَّ زوجتي، رفعت حاجبيها تسأل، وقد صدمتها المفاجأة، من يمكن أن يزورنا في مثل هذا الوقت، الأولاد أمام التلفزيون لم يهتموا للأمر، هل هو أحد الجيران؟ ليس من عادتهم، أنا لا أزور أحداً من سكان العمارة، وكذلك زوجتي، لا نزور أحداً، ولا أحد يزورنا، نهضت متثاقلاً، كان بيدي جريدة، وضعتها على يد المقعد، ونهضت، مشيت، نحو الباب، التفتُّ نحو زوجتي، كأنني أستنجد بها، مرة أخرى قرع الباب، فتحته.

أوه، هو صديقي بسام، أبو حسام، منذ أربع سنين أو خمس سنين لم يزرني، كنا لا بد أن نلتقي في الأسبوع مرة واحدة على الأقل، أو مرتين، في بيتي أو بيته، ثم انتقل إلى حي آخر، إلى الحي الغربي، كان مثلي يعمل في المحاماة، ترك دار القضاء، وبدأ يشتغل بتجارة البناء والسيارات، يشتري شقة ثم يبيعها، يشتري سيارة ثم يبيعها، وهكذا، اليوم عنده كما أعرف أربع فيلات، وربما عشر شقق، وعدة سيارت، خمس سيارات أو ست، مرة حكى لي أنه باع سيارة لزبون، باعه إياها في المساء، ثم جاء في الصباح، دفع باقي الثمن، واستلمها، كان في الليل قد بدَّل عجلات السيارة، وضع بدلاً منها عجلات قديمة ممسوحة، بدَّل

جهاز التسجيل والمذياع، فترت بيننا العلاقة، انقطعت الصلة، لا زيارات، لكن ما زلنا أصدقاء.

دخل، تتقدمه بطنه وقد امتلأت وتدوَّرت، يحمل في يده كيساً أسود، ملأت شقتي الصغيرة رائحة الثوم والبطاطا المقلية، في الكيس من غير شك فروجة مشوية، ومعها البطاطا وكريم الثوم، ما الذي دفعه إلى هذه الزيارة في هذا الوقت؟ هل افتتح محلاً لبيع الفروج المشوي؟

استقبلته زوجتي مرحبة، ولكن علائم الدهشة بادية على وجهها، قدمته لأولادي، عامر وسمير ومنى، عامر علق:

. أعرفه، عمي الأستاذ بسام، المحامي مثل بابا.

وصمت ثم أضاف، وهو يكلمني:

. كان يزورنا كثيراً، وكنتَ تزوره، ولكن انتقل من الحي، لا أنسى ابنه حسام.

هو صديقي منذ المرحلة الجامعية الأولى، تخرجت قبله في كلية الحقوق، تخرج بعدي بدورتين، رسب في السنة الرابعة.

دعوته إلى مقعد بجوار مقعدي، تكلّمت زوجتي:

. أعرف قهوتك من غير سكر.

وهمت بالمضي إلى المطبخ، استوقفها وعلق:

. أرجوك، اعفيني من القهوة، أريد النوم، أنا اليوم متعب.

ثم مد يده إلى الكيس وأخرج صندويشة، وقال لها:

. اقسمي هذه الصندويشة بين الأولاد، أنا أعرف: الأولاد يحبون صندويش البطاطا المقلية.

تطلعت إليه، لم أعلق، أضاف:

. لكن للأسف، طلبت من البائع الإكثار من كريم الثوم.

وضحك، ارتجت بطنه، وتحرك اللغد تحت ذقنه، تحسست الجلد المتغضن تحت ذقني، زوجتي ظلت واقفة مبهوتة، أضاف:

. إذا كان الأولاد لا يحبون التوم فاقسميها بينك وبين أخي أبو عامر.

ردت زوجتي:

. الأولاد تناولوا عشاءهم الساعة الثامنة، نحن كلنا بعد الساعة الثامنة لا نتناول أي شيء.

والتقط أنفاسه، كأنه يحس بضيق في صدره، أعاد الصندويشة إلى الكيس، ثم أضاف:

. لا بأس، سأعيدها إلى الكيس، سأحتاج إليها في الصباح.

علقت زوجتي:

. هل أضعها لك في الثلاجة؟

رد على الفور:

. شكراً لك، لأ، سأتركها هنا في الكيس، أنا أريد لرائحة الثوم أن تختمر، حتى تنتشر أكثر.

تبادلنا أنا وزوجتي النظرات، ثم ابتسمنا، ترى ماذا في الكيس؟ ولماذا يريد لرائحة الثوم أن تنتشر أكثر؟

والتقط أنفاسه ثانية، ثم تكلم:

ـ أعرف، شقتكم صغيرة، وما فيها غير غرفتين وهذا الصالون، ولكن أنا مضطر للنوم عندكم هذه الليلة، سأنام هنا في الصالون، مدّي لي يا أختي أم عامر أي فراش هنا وراء الباب، على الأرض.

التفتُّ إليه، وقلت له:

ـ لأ، أنا وزوجتي سننام هنا، وأنت تنام في غرفتنا في الداخل، وعلى سريري.

أكد:

ـ لأ، أنا أرتاح هنا وراء الباب.

أبو حسام ينام هنا وراء الباب، غير معقول، وما الذي يحمله في هذا الكيس؟ حتماً ليس جثة قتيل، فهو كيس أسود صغير، من أكياس القمامة السوداء، لا يكاد يتسع لفروجة، كأن فيه صندوقاً، أو ما يشبه الصندوق، ولا أظنه تخاصم مع زوجته، ما الذي يدفعه لينام الليلة عندي؟

ويتكلم:

ـ بصراحة، مررت ببائع الفروج المشوي، وقلت له اصنع لي صندويشة بطاطا كبيرة، وأكثِرْ فيها من كريم الثوم، وركبت سيارتي، ثم أودعتها في المغسلة، إلى الصباح، وأخذت سيارة أجرة، لاحظت عين

السائق على الكيس، داخلني الشك، قلت له على الفور: أسعار الفروج مرتفعة هذه الأيام، حتى أكياس النايلون يبخل بها البائع علينا، وضع لي الفروجة في هذا الكيس، وأخذت أتمتم في سري آية الكرسي، وأنا أسال الله الوصول إلى شقتكم بالسلامة.

الأولاد تركوا التلفاز واتجهت أحداقهم إلى صديقي أبو حسام، ينقلون أبصارهم بين الكيس الأسود واللغد الرجراج تحت ذقنه، وبين بطنه التي ترتج وهو يصطنع الضحك.

وتابع كلامه:

. الحقيقة، كدت أضيع، ما عدت أتذكر في أي شارع فرعي تقع شقة أخي أبو سامر، لكن الحمد لله اهتديت إليها، لكن بعد ما دخل السائق في عدة شوارع فرعية، ولف ودار، العداد وصل إلى مئتي ليرة.

قلت له:

. هل نسيت، أنا أبو عامر، لا أبو سامر.

ويلتفت إلي ثم يقول:

. سامحني أخي أبو عامر، أنا من ثلاث سنوات ما زرتك، والعتب على العمر ومشاغل الحياة، غلطت في اسمك، وضيعت البيت.

علقت زوجتي:

. أظن من خمس سنوات، من عمر ابنتي منى.

ضحك، ارتج اللغد تحت ذقنه، تراقصت بطنه، وأضاف:

ـ المهم، السائق ما عرف ماذا في الكيس، والله لوعرف كنت رحت أنا والكيس، لذلك أنا قصدتكم للنوم عندكم هذه الليلة، غداً في الصباح، في الساعة الثامنة سأغادر.

ويلتف إلي ليسأل:

ـ أعرف، حتى الآن ما اشتريت سيارة.

أرد:

ـ نعم، ما اشتريت سيارة، ولن أشتري.

يصمت ثم يضيف:

ـ سأضطر إلى أخذ سيارة، لكن لا بد من وضع صندويشة بطاطا مع الثوم في الكيس الأسود، أخشى أن يفطن سائق سيارة الأجرة إلى الكيس، رائحة الثوم هي التي ستحميني.

زوجتي تعلق:

ـ هل أضع لك الصندويشة في الشرفة، حتى لا تزعجك في الليل رائحة الثوم؟

يرد وهو يربت بيده على الكيس:

ـ لا، لا، شكراً، مثلما قلت لك، سأتركها في الكيس حتى تختمر أكثر، وتصبح رائحة الثوم أقوى، هذا أفضل وأكثر أماناً.

ينظر إلينا، ثم يعلق وهو يضحك، ولا أعرف لماذا يضحك، وهو يضع الكيس الأسود في حضنه، ويتكلم:

. بصراحة ما عدت أطمئن إلى أحد، حتى زوجتي أحياناً أحسب لها ألف حساب، الحمد لله أولادي صغار، لكن أخشى من حسام إذا كبر، على كل حال، هي ليلة واحدة، أرجو أن تتحملوني، لن أثقل عليكم، كما قلت سأنام هنا وراء الباب، ولا أريد حتى مخدة، سأضع هذا الكيس الأسود تحت رأسي.

ابني الأوسط، سمير، وعمره سبع سنين يسأل:

. عمي...ما قصة هذا الكيس الأسود؟

أبو حسام يضحك، يرتج اللغد تحت ذقنه، تتراقص بطنه، يمسك الكيس الأسود بكلتا يديه، يشده إلى جسمه، إلى صدره، كأنه يريد إدخاله بين ضلوعه:

ـ هذا الكيس بسببه قد أقتل، لذلك لجأت إلى والدكم، أعز صديق، ولا أحد يتوقع نومي عندكم هذه الليلة، حتى سيارتي مثلما قلت لكم تركتها في المغسلة وأخذت سيارة أجرة، فكرت وقلت في نفسي، لو جئت بها إليكم وتركتها أمام باب العمارة فلا بد من أن يستدل بها أحدهم عليَّ ويعرف بوجودي عندكم، الاحتياط واجب.

سمير يتكلم:

. عمي، ما قلت لنا ...ما قصة هذا الكيس الأسود؟

زوجتي تمضي إلى المطبخ ثم ترجع، وهي تحمل الشاي، تقدمه لنا جيعا وهي تقول:

. هذ الشاي خفيف.

يعلق وهو يضحك:

ـ لا، لا، شكراً، أخشى الأرق، أرجو إعفائي من الشاي، أنا مثلكم، بعد الثامنة مساء لا أتناول أي شيء، لا الشاي ولا القهوة.

ويشد الكيس إلى صدره، ثم يتكلم وهو يضحك:

ـ من الممكن أن تذهب حياتي مثل شربة الماء بسبب هذا الكيس لذلك، سأنام عندكم هذه الليلة.

أعلق مازحاً وأنا أتناول كأس الشاي:

ـ اطمئن، ليس في الشاي سم ولا مخدر، خذ أي كأس تريد، نحن كلنا سنشرب منه.

يرد:

ـ لا يا أخي أبو سامر، عفواً أبو عامر، أنا مطمئن، ولذلك قصدتك أنت بالذات، وما قصدت أي شخص غيرك، ولا أحد يتوقع وجودي عندك.

أسأل:

ـ كم مليون في الكيس؟

أبو حسام يضحك، يتكلم:

ـ بصراحة، قبل ساعة بعت الفيلا في الحي الغربي، بمئة وخمسين مليون، وقبضت خمسين مليون، غداً مع بدء الدوام سأذهب إلى البنك لإيداعها فيه، اطمئنوا، أمام شريكي وأمام المشتري وضعتها في الخزانة الحديدية، وأقفلتها، وأغلقت المكتب، وركبت سيارتي،

أوصلت شريكي إلى بيته، ثم رجعت إلى المكتب، وأخرجت المبلغ، سأنام عندكم، وهنا وراء هذا الباب، باب الشقة، والمبلغ تحت رأسي.

ويلتفت إلي ثم يقول:

ـ والله حتى لو تنازلت عن غرفتك وسريرك وفرشتك، لن أنام إلا هنا وراء الباب، وعلى الأرض، والكيس الأسود تحت رأسي، وفي داخله صندويشة بالبطاطا وكريم الثوم، لا أطمئن، كل شيء متوقع، واسمحوا سأترك المصباح مضاء، أرجو ألا يزعجكم، لا أريد إطفاء النور، ناموا أنتم في غرفكم، وأظن عرفتم سبب حرصي على الصندويشة، رائحة الثوم ستغطي على رائحة العملة، ولن يشم السائق رائحة العملة، طبعاً العملة لها رائحة، والله لو شمها وعرف لأخذني إلى خارج المدينة وذبحني.

ينهض، ثم يكلم الأولاد:

ـ غداً سأحضر لكم فروجة مشوية، وسآخذكم بجولة في سيارتي، بعد إيداع المبلغ في المصرف.

يذهب الأولاد إلى غرفتهم لينـاموا، أمضي أنا وزوجتي إلى غرفتنا.

أسمع الأولاد يثرثرون ويقهقهون.

زوجتي تتكلم متسائلة:

ـ ما وجد غيرك لينام عندنا؟ وهو صاحب أربع فيلات وعشر شقق؟ لماذا لا ينام في الفندق؟

أعلق:

. الذهب يحتاج إلى النخالة.

. ما فهمت؟

ـ هكذا كانت جدتي تقول، كي يلمع الذهب لا بد من فركه بالنخالة.

زوجتي تعلق مستاءة:

. وهل نحن نخالة؟ وهو الذهب؟ لا والله، نحن الذهب وهو نخالة النخالة.

وتصمت ثم تتكلم:

ـ أحس بنَفَسِه يضيق وهو يتكلم، وأسمع صوت حشرجة في صدره، وهو بدين زيادة، أخشى أن يصاب في هذه الليلة بجلطة، وبصراحة إذا مات عندنا في هذه الليلة ماذا سنفعل؟

أحدق في زوجتي، أدهش لمنحى تفكيرها، أعلق:

. ما هذه الأفكار يا هدى؟

زوجتي متخرجة في قسم اللغة الإنكليزية، وكانت حكت لي عن مسرحية ماكبث لوليم شكسبير، أسألها ساخراً:

. ما رأيك؟ هل

وأشير بيدي إلى حنجرتي إشارة تعني الذبح، تضحك، تعلق:

. والله يستحق.

وتصمت ثم تضيف:

. لكن، للأسف ليس عندنا سكين حادة.

أضمها إلى صدري، ونغط في النوم.

أكاد أحس بدبيب حركة، شيء ما يتموج، طيف أو خيال أو شبح، حركة غير طبيعية، أنسل من فراشي، أمضي على رؤوس أصابعي، نور الصالون يتسلل من ثقب الباب، ظلٌّ يمر أمام الثقب، النور المتسلل تحت الباب يتماوج، كأن أحداً يمشي في الصالون، هل نهض أبو حسام ليتلصص علي وعلى زوجتي، أو ليطمئن إلى نومنا، أمشي ببطء نحو ثقب الباب، مهتدياً بالنور المتسلل منه، أضع عيني في الثقب، الدماء تتدفق من عنق صديقي أبو حسام، سكين حادة مغروسة في عنقه، قطع من اللغد متناثرة على الأرض، كأن قطة نهشته، أنهض من فراشي فزعاً، زوجتي إلى جانبي، الحمد لله، ليست هي ولا أنا، هل الأولاد، هل تسلل لص إلى الشقة وذبحه، أهز زوجتي من كتفها، أوقظها، تفتح عينيها، أقول لها أبو حسام مذبوح، تأخذني بين ذراعيها، وهي تقول:

. هذا حلم، ارجع إلى النوم.

أستيقظ وزوجتي في السابعة، نمضي إلى الصالون، رائحة الثوم تملأ الشقة كلها، رائحة ثقيلة، أبو حسام ينام وراء الباب ويده تحت رأسه، وليس ثمة كيس.

ألتفت إلى زوجتي، أنظر إليها مدهوشاً، أشير بكلتا يدي متسائلاً أين الكيس، أبو حسام يفتح عينيه، أدرك أنه لم يكن نائماً، ينهض فوراً وهو يصيح:

. الكيس الأسود، الكيس، أين الكيس؟

أقف وزوجتي مبهوتين.

زوجتي تنظر إلى وقد اصفر وجهها، لا يعقل أن يدخل أحد إلى الشقة ويسرق الكيس، بل من غير الممكن بل من المستحيل، ولا أحد يدري بوجوده.

ثم ينفجر ضاحكا:

. لا تخافوا، أردت المزاح معكم، الكيس هنا تحت المقعد.

جدتي ترى جدي

ما أزال أذكر ذلك اليوم، كم ضحكنا فيه، أنا وإخوتي، كان عمري اثني عشر عاماً، ولكن جدتي كانت قد بكت فيه، ثم ضحكت، وذرفت أمي بعض الدموع، وما كنا نعرف أنا وإخوتي للحزن معنى، فضحكنا.

*

يقرع الباب أسرع إليه أفتحه، وإذا جدتي، يسرع إليها إخوتي، حسام ونائل ورشا.

عيناها محمرتان، أثر الدموع ظاهر على خديها، لكن ضحكة واسعة تملأ وجهها.

أسألها:

. أين عمي؟

. أوصلني إلى باب العمارة، وراح إلى بيته.

كان عمي، قد جاء قبل ثلاث ساعات وأخذ جدتي بسيارته، حتى إنه لم يدخل، كانت في انتظاره، لاحظنا استعدادها للخروج قبل وصوله، كانت معه على موعد، ما عرفنا إلى أين ستذهب.

عمي قليلاً ما كان يزورنا، ولا نعرف إلى أين ذهب بجدتي؟ ارتدت جدتي أبهى ما عندها من معاطف، وإن كان قديم الزي، حملت

حقيبة يد أنيقة، ولكنها قديمة أيضاً، ومشت مثل ملكة بريطانيا، وحين رن جرس الباب نهضت على الفور، وقالت: "هذا عمكم، سأغيب ساعة ثم أرجع"، لكنها غابت حوالي ثلاث ساعات.

تساءلنا أنا وأمي وإخوتي.

قالت أمي:"أظنها ذهبت إلى المحكمة لتوصي لعمكم بالشقة التي تملكها، والتي يسكن فيها".

عمي أصغر من أبي، في ذلك الوقت كان قد بلغ الأربعين، ولم يتزوج، ثم توفي ولم يبلغ الخمسين، لم يكن له عمل، أمي تحقد عليه، أبي دائماً يساعده، نحن نعيش في شقة واسعة، يملكها أبي، كان أبي قد سافر إلى الخليج وعمل هناك.

قلت لأمي: "ولكنها ذهبت في الثالثة، والمحاكم تغلق في الثانية والربع"، كان الدوام في تلك الأيام ينتهي في الثانية والربع، قالت أمي: "والله، أنت مثل الشيطان، من صغرك تعرف كل شيء"، لم أكن صغيراً، كنت في الثانية عشرة، كنت في الحقيقة ألتقط كل ما تقولها أمي أو أبي أو جدتي، وأحفظ، لا أنسى، أمي دائماً تتوقع من جدتي أن تسجل الدار التي تملكها باسم عمي سمير، كانت قد ورثت الدار عن أبيها، وهي تعيش معنا، لا تعيش معه، أنا أعرف لماذا، حتى توفر عليه المصروف، هي تقول إنها تحبنا، هذا صحيح، ونحن نحبها، ولكن لتوفر على عمي المصروف وثمن الدواء، هكذا قالت أمي أكثر من مرة، أخي حسام في الثامنة لا يعرف شيئاً، وأختي رشا في الخامسة، أخي نائل في

الثالثة، جدتي تحبني كثيراً، وتحب حسام، وتحب رشا، لكنها تحب نائل أكثر منا جميعاً، أنا أعرف لماذا، نائل يشبه جدي، هكذا تقول جدتي.

وتدخل أمي، تساعدها على خلع معطفها، تقول لها ببرود:

ـ شغلتِ بالنا، والله قلقنا عليك، أين ذهبت مع عم الأولاد؟

تمسح جدتي الدموع من عينيها، تضحك، تتألق أسنانها البيضاء اللامعة المنضدة بأناقة، طبعاً هي أسنان صناعية، وضعتها قبل عشر سنين، فور عودة أبي من الخليج، هكذا قالت أمي.

نلتف حولها نسألها:

ـ أين كنت؟

هل مات قريب من أقربائها؟ في الحقيقة لم يبق لها قريب، كل من كانوا في مثل عمرها ماتوا، وكلما مات واحد كانت تأبى إلا أن تحضر العزاء، وترجع باكية، وهي تقول: "أنا لا أبكي عليه، أنا أبكي على نفسي".

قالت لها أمي:

ـ سأصنع لك فنجان قهوة.

ردت:

ـ زيدي من سكره، أكثر من كل مرة.

جدتي مغرمة بالقهوة، بلغت الثمانين، ولا بد من أن تشرب القهوة في اليوم أكثر من خمس مرات.

ألححنا عليها بالسؤال، قالت:

. رأيت اليوم جدكم.

دهشنا، فتحنا أفواهنا غير مصدقين، جدتي طالما حدثتنا عن جدي الذي لم نره، ولا رأينا صورة له، كانت دائماً تقول: "جدكم رجل ولا كل الرجال، إذا دخل في هذا الباب سدَّه"، وتشير في كل مرة إلى باب الغرفة، ثم تضيف: "طويل، أطول من ابني سمير عمكم، حتى أبوكم عادل لا يشبهه، أبوكم يشبه خاله علي، أخوكم الصغير هذا نائل يشبه جدكم، وتشير إلى أخي نائل ابن السنوات الثلاث، وتقول: "عندما يكبر نائل فسوف يشبه جده أكثر، الله يرحمه، عيناه زرقاوان مثله، وشعره أشقر، ما كان في زماننا مصور، لكن صورته هنا في قلبي، لا أنساه"، وتعلق أمي: "احكي لنا، بالله عليك، ما عذبك مثل باقي الرجال؟"، ثم تهمس أمي:"أو ما عذبتِه أنت؟"، وترد جدتي، وقد سَمِعَتْ همْس أمي:"خسئتِ، يا سمراء، ما عذبته ولا عذبني"، وتعلق أمي:"طبعاً ما عذبك وما عذبته، لأنك ما عشت معه غير سبع سنين"، وترسل جدتي زفرة وتعلق:"لأ، ماعشت سبع سنين، عشت معه خمس سنين، كان ابني عادل، زوجك، عمره خمس سنين، وكنت حاملة بسمير شهرين"، وتغمغم أمي مازحة: "هل أكيد كنت حاملة؟"، وتسمعها جدتي، فتصيح مازحة:"الله يلعنك، يا سوداء، أنا الحمد لله طوال عمري مافاتتني صلاة، نحن ما كنا مثل هذا الجيل، أنا صرت أرملة، الله يلعن الحرب وساعتها، وعمري حوالي ثلاث وعشرين سنة، قلت لك، تزوجت وعمري ثماني

عشرة سنة، وما عشت مع زوجي غير خمس سنين، وما تزوجت، نذرت نفسي لتربية زوجك عادل، ربيت لك أفضل رجل، ومثله أخوه سمير".

وتدخل أمي تحمل القهوة لجدتي، وتأبى جدتي إلا أن تضع ملعقتين صغيرتين من السكر في الفنجان.

وتنهال عليها أسئلتنا، أنا وأمي وأخي حسام وأختي رشا:

. كيف رأيت جدي؟

. أرجوك قولي لنا أين رأيت جدي؟

. هل أخذك إليه سمير عم الأولاد؟

هل احتفظوا بجثمان جدي، حنطوه، ووضعوه في قفص من زجاج، ثم أحضروه بصورة خاصة إلى حلب لتراه جدتي؟ هل وضعوه في المتحف؟ طول عمرها وهي تحدثنا عن جدي، ولكن ما من مرة قالت رأيته، كيف رأته اليوم؟ هل عثر عمي على صورة له؟ لو عثر على صورة كانت أرتنا إياها.

ترشف قهوتها، وتتكلم:

. **بعد ساعة يأتي أبوكم، اطلبوا منه أن يأخذكم معه لرؤيته.**

وأسألها:

. ولماذا رحت مع عمي سمير لرؤية جدي وما رحت مع أبي؟

ـ عمك سمير ما عنده عمل، وقته كله ملكه، أبوك ما عنده ساعة فراغ، من الصباح حتى المساء وهو في المحل.

وتصمت ثم تضيف وهي تضحك:

ـ غداً سأذهب مرة ثانية لأراه.

وتسألها أمي:

ـ بالمناسبة، زوجك، جد الأولاد، الله يرحمه، وحيد، كيف أخذوه للجيش؟

جدتي ترشف من فنجانها، وترسل زفرة:

ـ الله من عنده يلعن الحرب، ويلعن ساعتها، نعم يا بنتي، زوجي وحيد، ولكن الحرب أهلكت الناس، حكى لي ابن عمه، وكان معه، ابن عمه رجع من الحرب، وهو ما رجع، ابن عمه عرض عليَّ الزواج أكثر من مرة، وأنا في كل مرة كنت أرفض، أنا أعرف، ابن عمه ما له ذنْب، لكن هو الذي قال لي: "زوجك استشهد"، وما عدت أتحمل رؤية وجهه، كيف أتزوجه؟ وأعيش معه؟ قال ابن عمه، وهو صادق، كانوا راجعين إلى البيت، كان هو وابن عمه في السوق، وفجأة، ملأ السوق عسكر العصملي، ولموا الشباب، أمروهم، كل واحد يمسك يد الثاني، ومشوا بهم في حبل متصل، أوله في باب الفرج وآخره عند القلعة، أكثر من ثلاثمئة شاب من خيرة الشباب".

وتسأل أمي:

ـ وما قال لهم أنا وحيد؟

وترد الجدة:

ـ قال لهم، لكن ما سمعوا كلامه وما صدقوه، في تلك الأيام ما كان عند الشخص دفتر عسكرية ولا بطاقة هوية.

تمسح دموعها بكفيها، وتتكلم:

ـ والله كان عندي ثلاث ليرات ذهبية، لو كنت أعرف لكنت لحقت به إلى القلعة وأعطيتها للعسكري، كان فكه ورجعه إلي، لكن ما عرفت إلا بعد يومين.

وأتكلم:

ـ أنا أعرف القلعة، وأعرف باب الفرج، بين باب الفرج والقلعة مسافة ألف متر وأكثر، وأنت قلت أخذوا ثلاثمئة شاب؟

ـ يا بني، يا بني، ابن عمك قال، والله نسيت، ثلاثمئة، خمسمئة، ألف، وكان كل واحد يمسك يد الآخر ويسير الجميع في شكل حبل، حتى لا يهرب أحد، لا أتذكر، أظن أكثر من ألف.

ويسأل حسام:

ـ ولماذا أخذوهم إلى القلعة؟

جدتي تمسح دموعها:

ـ من القلعة ساقوهم ماشين على الأقدام إلى حرب سفر برلك.

أسألها:

ـ وتدرب على الحرب؟ أعطوه بارودة؟

تمسح دموعها وتتكلم:

ـ لا تدريب، ولا بوط، ولا أكل، لما رجع ابن عمه حكى لنا حكايات عجايب غرايب.

يد جدتي ترتعش، أمي تأخذ الفنجان من يدها.

أسألها بإلحاح:

. وكيف رأيت جدي اليوم؟ احكي لنا.

تقول:

. والله رأيته بعيني هذه، وهو في الخندق، ومعه بارودة، لحيته طويلة، من شهر ما حلقها، ووجهه ضعيف، من قلة الأكل، أو قولوا من الجوع، ولكن نظرته هذه هي، نفسها، ما تغيرت، مثل الصقر، ولما بدأت المعركة كان أول من طلع من الخندق، وهجم، وبعدها ما شفته، أنا اليوم تعبت، ولكن في يوم غد، سوف أذهب لأراه مرة ثانية، يمكن بعدها ما أشوفه، اليوم مساء روحوا مع ابني عادل، أبوكم، قولوا له، روحوا معه، شوفوا جدكم، وحتى يشوف هو والده، يمكن بعد ساعة يبدأ عرض جديد.

نصيح:

. عرفنا، عرفنا، رحت إلى السينما، رأيت فيلم سفر بر لك.

يقول حسام:

. هذا ما هو جدي، هذا ممثل.

تعلق جدتي:

. أعرف، ولكن يشبهه، والله، كأنه هو.

ننفجر نحن في الضحك، أمي تولينا ظهرها، تسرع إلى المطبخ، وهي تمسح دموعها.

ألحق بأمي، أسألها عن سبب بكائها، أعرفها لا تحب جدتي، فلماذا هذه الدموع، ترد:

. لا شيء.

ألح عليها في السؤال، فترد:

. كان لي أخ، مثل جدك، راح إلى حرب ٤٨ لتحرير فلسطين.

. وهو وحيد مثل جدي؟

. لأ.

. وما رجع؟

تلتفت إليَّ، تمسح رأسي بكلتا يديها، تضمني إليها، أحس بها وهي تبكي.

*

كان ذلك قبل أكثر من نصف قرن، حوالي عام ١٩٦٠، ولا أعرف لماذا أتذكره كلما شاهدت في التلفاز فيلماً عن حرب.

شرفات...وشرفات

١

سلم كسرت أكثر درجاته، برميل مازوت عتيق، منضدة حديدية صدئة، خزانة خشبية طارت رفوفها، صناديق بلاستيكية، أصص زهر عتيقة خاوية، علب معدنية صدئة، وما يزال الشرفة مكان فارغ يتسع لأشياء أخرى.

٢

ستارة ممزقة مسودّة من السخام والغبار تحجب الشرفة ولا تكشف عن أي شيء وراءها.

٣

مولّدة كهربائية ترسل جعيرها ودخانها.

٤

أصص زهر تمتد على طول سور الشرفة تتفتح فيها زهرات حمراء زاهية وفي السقف عريشة خشبية تتسلقها دالية عنب تتدلى منها العناقيد، وكناري أصفر في قفص معدني معلق بالعريشة، يختبئ بين العناقيد، تغريد منوع متصل ينهمر من الشرفة.

٥

عبق القهوة وأصداء ضحكات أنثوية ناعمة وأشذاء عطور تتداح وظلال صبايا في أرجوحتين متقابلتبن ورذاذ يعلو متطايراً من بركة ترسل نافورتها الماء وأضواء ملونة تشدو أنغاماً عطرة.

٦

شجيرة ياسمين تملأ سور الشرفة، أعوادها يابسة، أوراقها متساقطة، ولا زهرة فيها.

٧

حجارة مسودّة من سخام السيارات، وحديد الدرابزين صدئ، وأباجورات خشبية زال عنها دهانها مغلقة على النوافذ، وغراب أسود يقف على حافة الشرفة.

٨

قرميد مكسر ومثقب يصعد من السور إلى السقف، في بعض القرميدات فتحات تظهر من خلالها فوهات بنادق، وفي القرميد تظهر واضحة آثار طلقات من رشاش.

٩

شرفات أربع هبط عاليها فوق سافلها وتراكم بعضها فوق بعض مثل طبقات أقمشة مطوية.

١٠

صبية تحمل كتاباً تقرأ فيه تارة وهي تروح وتجيء في شرفة صغيرة وترمي بنظراتها تارة أخرى إلى شرفة مقابلة.

١١

طفل صغير على الرصيف وحقيبته الصغيرة على ظهره، والبرد شديد، وأمه في الشرفة واقفة تنتظر وصول سيارة الروضة.

١٢

قالب خشبي في واجهة البناء يستند على دعامات خشبية يضم أسياخاً حديدية وعامل يخرج من المبنى يحمل على كتفه صفيحة معدنية فيها خليط حصى وإسمنت يصبه في القالب وعامل آخر يقف فوق القالب يمدُّ الإسمنت ويسوّيه.

الأراجيح ....والسوق القديم

أمسك بيد ابني، وندخل في السوق.

السوق معتم، ضيق، مسقوف، البلاط في أرضه مفلطح.

يسألني ولدي:

. هل هذا هو السوق الذي قلت لي ستأخذني إليه في أول يوم من أيام العطلة الصيفية؟

ـ نعم، أنا أحب هذا السوق، كان جدك، يجيء بي إلى هذا السوق وأنا كنت في مثل عمرك، ليشتري لنا منه اللحم والخضار والفاكهة، وكان يشتري لي المكسرات من محل مشهور، سأشتري لك منه.

. والحلوى التي وعدتني بها بمناسبة نجاحي إلى الصف الرابع؟

. فيه أيضاً محل لبيع الحلوى، سنمر به وسنشتري منه.

خمس محلات أو ست محلات على الطرفين لبيع الأحذية، رفوف على الجدران، صفت عليها الأحذية في أوضاع مختلفة، البائع في عمق المحل، وراء منضدة خشبية، قعد وراءها من قبله جده وجد جده.

حمار محمل بأكياس مملوءة بألبسة، يدفعه حمال، وسط الزحام.

محلات أربعة على الطرفين لبيع المسامير والمناشير والمفكات والمطارق والمثاقب والمعاول والفؤوس، معروضة على الرفوف، الغبار يعلوها، البائع يقف في مدخل محل مفتوح، لا باب له، فوق مدخل المحل علقت أسلاك معدنية مختلفة الأنواع ملفوفة في حلقات.

محلان أوثلاثة لبيع الصابون، أكياس كبيرة في مدخل المحل فيها صابون على شكل مكعبات، رائحته تعبق السوق، إلى جانب الأكياس صنوق مملوء بالشاي الأسود الناعم، وإلى جانبه صندوق آخر فيه شاي أسود خشن قليلاً، يليهما كيس ثالث فيه زعتر جعله البائع على شكل هرم تلتمع فيه حبات السمسم.

. عصير، عصير.

عربة عليها برتقال وعصارة يدوية وكؤوس زجاجية، برتقالات مقسومة نصفين، البائع يدفع العربة في السوق فوق البلاط المفلطح، يقف، يطلب منه رجل كأس عصير، يتناول كاساً زجاجية، يغطها في صفيحة معدنية معلقة إلى جوار العربة، يخض الكأس داخل ما في الصفيحة من ماء، يغسلها، ثم يضعها في العصارة، ويبدأ بكبس ذراع العصارة، ثمة مقدار إصبع من ماء الصفيحة ما يزال في قاع الكأس، لم يفرغ البائع الكأس تماماً، يبدأ السائل الأصفر يسيل من العصارة داخل الكأس، بثلاثة أنصاف من برتقالتين تمتلئ الكأس، جدار الكأس سميك، وقاعها سميك.

دكان حلاق، كرسي خشبي، ومرايا عتيقة، الإضاءة خافتة، ثمة رجل في الكرسي يميل رأسه إلى وراء، يسنده إلى وسادة جلدية مرتكزة على حامل خشبي، الحلاق يضع تحت ذقن الرجل صحناً أصفر عميقاً تدخل حافته في عنق الرجل، حافة الصحن على ما يبدو مفرغة على شكل نصف دائرة، في الصحن العميق ماء، يغسل به الصابون المحيط بذقن الرجل.

حلاق آخر إلى جواره يسن الموسى على قشاط جلدي.

أحس بولدي وهو يحث الخطا مسرعاً.

نجتاز الحلاق.

ولدي يسألني:

. بابا، أين محل المكسرات؟

. سنصل إليه، بعد قليل.

. هل هو بعيد؟

. لأ.

على الطرف المقابل بائع أقمشة، دكانه مفتوحة، لا واجهة زجاجية لها، الأقمشة مصفوفة في على الرفوف في شكل مواسير، ألوانها فاقعة زاهية لامعة.

محلات خمسة أو ستة على الطرفين لبيع الأقمشة، كلها متشابهة، في عمق أحد المحلات علقت صورة بالأبيض والأسود لرجل عجوز شائب.

ناقلة صغيرة على ثلاث عجلات تتقدم نحونا مخترقة الزحام، محملة بعظام كبيرة الحجم.

يسألني ولدي:

. بابا، هذه عظام ديناصور؟

أضحك، أعلق:

. هذه عظام بقر أو جمال.

نمر ببائعي الأقمشة.

على الطرف الأيمن تنهض في الجدار مصطبة حجرية بعرض شبر تقريباً، تتوضع فوقها أربع طاسات معدنية، ربطت كل طاسة بسلسلة معدنية وشدت بمسمار إلى الجدار، فوق كل طاسة حنفية، تعلو الحنفية زخارف حفرت في الحجر، تتوسطها لوحة حجرية، نقشت فيها عبارات تآكلت بعض حروفها، ألتفت إلى ولدي أقول له اقرأ، فيقرأ

ـ الفاتحة إلى روح المرحوم الشيخ العلامة عبد الهادي أبو المكارم رحمه الله

رجل يقف، يملأ إحدى الطاسات بقليل من الماء، يخضها، ثم يرمي الماء على المصطبة، فينساب على الجدار، ثم يملأ الطاسة إلى حافتها، يقول: "بسم الله"، ثم يرفعها إلى فمه، يفرغ الماء كله في جوفه.

يلتفت الرجل إلي ليقول:

. هذا الماء فيه شفاء، اسق منه ابنك، حتى يفتح الله عليه.

أقول لولدي:

ـ هذا الموضع لسقاية الناس يسمى "السبيل"، ويعتبره الناس صدقة جارية.

ـ هل السبيل معناه الماء؟

ـ لأ، السبيل معناه الطريق، ومنه السابلة، الناس الذين يمشون في الطرق، والأصل ماء السبيل، أي ماء الطريق، لكن للاختصار سماه الناس السبيل.

إلى جوار السبيل محل فيه أقمشة، وفي عمق المحل آلة خياطة، يقعد وراءها رجل، يخيط جلابية، وفي واجهة المحل المفتوح علقت جلابيات كثيرة من مقاييس مختلفة، الرجل وراء آلة الخياطة يرفع رأسه وينادي مشيراً إليَّ بيده:

ـ تفضل، فصِّل لك ولابنك مع الصيف جلابية حرير.

بجواره محل آخر للخياطة، يقابلهما محلان أو ثلاثة أيضاً.

امرأتان تتجهان نحونا، ترتدي كل منهما ملاءة سوداء، وتغطيان الوجه بنقاب، حين تحاذي إحداهما ابني، تمسح رأسه بيدها، وأسمعها تعلق:

ـ ما شاء الله، يخزي العين، حط له خرزة زرقاء.

ويسألني ولدي:

ـ ماذا قالت، وما معنى الخرزة الزرقاء؟

. بعض الناس إذا نظروا إلى شيء جميل أصابوه بالأذى، هكذا يعتقد كثير من الناس، والخرزة الزرقاء ترد أذى مثل تلك العين، هكذا في اعتقادهم.

. وهل تصدق هذا أنت؟

. لأ.

. ولماذا؟

. لأنه غير صحيح، العين آلة للإبصار، ولا قدرة لها على الفعل أو التأثير.

ابني يضع يده على أنفه، ويسأل:

. ما هذه الرائحة.

نحن أمام محل علقت في مدخله شقة جمل، الشقة تتدلى نحو الأرض، بطول مترين، وقد أعمل الجزار السكين في الشحم، فجعله ينثني إلى الخارج في شكل ثنيات بيضاء مدهشة تتدرج من أعلى الشقة إلى أسفلها، وإلى جانب الشقة علق قطعة حمراء طويلة تكاد تبلغ ثلاثين سنتيمتراً.

ولدي يسألني:

. ما هذا؟

. هذا لسان الجمل.

الجزار وراء منضدة خشبية، وبيده سكين حادة، يقول:

ـ تفضل أستاذ، أعطيك أفضل كيلو كباب، من غير شحوم، وبدهن خروف.

أحس بولدي يستعجل، قطة تحوم أمام الدكان.

ولدي يسألني:

. بابا، أنت تشتري اللحم من هنا؟

. لأ.

على الجانبين ثلاث محلات أو أربع، ولدي يضغط على يدي، كأنه يشدني، يريد أن يستعجل.

في السقف المحدودب للسوق فتحات مربعة الشكل يدخل منها ضوء الشمس في حزمة، الضوء يسقط على أرض السوق، يظهر في الحزمة غبار السوق وهو يتطاير.

يقف قليلاً أمام جسم ضخم معلق في مدخل محل، يسأل:

. هل هذا جمل؟

. لأ، هذا بقر.

. وهل تشتري لنا منه؟

. لأ.

. ومتى سنصل إلى بائع المكسرات؟

. اقتربنا منه.

. وبائع الحلويات؟

. لأ، هو بعيد.

شاحنة صغيرة ذات ثلاث عجلات تقف أمام محل مجاور، ورجل يحمل منها جسم خروف مذبوح ومسلوخ، ورأسه يتدلى.

ولدي يقول:

. عرفته، هذا خروف.

أربع محلات أو خمس على الطرفين نمر بها، كلها لبيع اللحوم.

فجأة يقف ولدي أمام محل، وهو يضع يده على أنفه.

في مدخل المحل وعلى مصطبة صفت رؤوس خرفان كثيرة، بعض الرؤوس أسود وبعضها أشقر، الجلد لم يكشط عن الرؤوس، الجلد ملوث بدماء متجمدة، من فم الرأس يبرز لسان تطبق عليه أسنان تكاد تقطعه، الأنف مخروطي متقدم إلى أمام، عند فتحة الأنف تحط بضع ذبابات، عينا الرأس مغمضتان، والأذنان متدليتان.

وإلى جانب الرؤوس كومة من قوادم الخرفان سوداء شعرها نديان لم تكشط عنها جلودها.

ولدي يلتفت ليسألني:

. **بابا، هل السوق بعيد، أقصد هل هو طويل؟**

. نعم، هو طويل، نحن ما قطعنا غير ثلثه، وعلى جانبيه أسواق موازية، ومتقاطعة.

. وماذا فيها؟

ـ هناك محلات لبيع الأطعمة، بعد قليل محل لبيع الفول والحمّص، ومحل لبيع الحلاوة، أو أكثر، ومحل لبيع الفلافل والعجة،

وبعده محلات كثيرة لبيع البهارات والتوابل، ومحلات لبيع الخضار والفاكهة، ومحلات لبيع الدلاء الجلدية والمناخل والأطباق.

. وهل سنمشي إلى آخر السوق؟

. هل تعبت؟

. نعم.

. لا بأس، هذا محل لبيع المكسرات سنشتري منه.

في داخل المحل وعلى الجانبين أطباق كبيرة من القش مملوءة بالفستق والجوز واللوز والمكسرات.

في السقف فتحات يدخل منها النور في حزمة ضوئية تسبح في داخلها ذرات الغبار، حزمة الضوء تسقط من السقف على طبق مملوء بالفستق.

في عمق المحل شاب يقف وراء ميزان ذي كفتين يستقر على منضدة خشبية عتيقة.

في مدخل المحل كرسي خشبي عريض ثبتت قوائمه في الأرض، مسنده من قش وله ذراعان، استقر فيه رجل شائخ عجوز بدين، قدماه متورمتان، وكرشه مندلق أمامه مثل كيس، يعلوه صدر لصقت به جلابية بيضاء رقيقة أبرزت شكل ثدييه وقد امتلأا وتهدلا، ومن فتحة الجلابية يبرز عنق قصير ممتلئ تدلى فوقه لغد رجراج تعلوه ذقن عريضة وفم أشدق واسع تحت أنف كبير مفلطح، تحت عينيه ورم أحمر يكاد يتشقق،

وأجفان العينين لا تكاد تنشق ليظهر بؤبؤ أزرق باهت مبيض، يعلو العينين حاجبان طال شعرهما وتقوس.

أسمع صوتاً أنثوياً وأحس ورائي صخباً وجلبة.

ألتفت.

يتجه نحونا سائح أمام وجهه آلة تصوير سينمائية وضع عينه على موضع التصوير وأغلق الأخرى، أشقر، طويل، في الأربعين من العمر، وإلى جانبه سيدة في عمره، قميصها وردي شفاف مفتوح حتى فجوة النهدين عن جسد لوحته الشمس، وجهها فيه نمش، شعرها قليل وقد لفته وحزمته وراء رأسها بعقدة، ثبتت في شعرها فوق رأسها نظارة شمسية قاتمة.

يتقدمهما بضعة أولاد يتقافزون كل منهم يريد أن يظهر في مجال التصوير.

عيون الرجال والباعة تخرج من المحاجر وهم ينظرون إلى صدر المرأة.

السائح يثبت آلة التصوير على الرجل العجوز الممتلئ، الرجل العجوز يبتسم وهو يشير إليه بيده مرحباً.

السائحة تهتف:

Oh, Fantastic, He looks like Sphinx. Surly, we are in a current contemporary museum.

الشاب الواقف في عمق المحل وراء الميزان يملأ كيساً ورقياً صغيراً بالمكسرات يقدمه للسائحة.

تهتف:

. Oh, thank you

البائع الشاب يقبض حفنة من المكسَّرات يقدمها لولدي، يتردد في أخذها، أقول له خذها، يتناولها بكلتا راحتيه المفتوحتين، تتساقط بعض حبات الفستق على الأرض، يميل الشاب صاحب المحل فيلتقطها.

الرجل القابع في مدخل المحل يسألني بعد مضي السائح ورفيقته:

. ماذا قالت المرأة؟

. قالت شكراً.

. أعرف، هذه أعرفها، ثانك يو، لكن ماذا قالت أول مرة؟

. قالت شيء رائع، نحن في متحف حي معاصر.

. بنت الحرام، الله لا يوفقها، وهل نحن أصنام في متحف؟ بالله عليك، قل لي، أنا سمعت كلمة سفنكس، هل هذه مسبة؟ شتيمة؟

. لأ، يا عمي.

. والمعنى، ما معنى سفنكس؟ هل معناها فينيقي؟

. سفنكس، هو أبو الهول.

يضغط بكلتا يديه على ذراعي المقعد الخشبي العريض، كأنه يهم بالنهوض:

. الآن فهمت، الله يلعنها، بنت الحرام، يعني أنا أبو الهول، خسارة فيها نصف الكيلو مكسرات.

العجوز يغمغم:

ـ سياحة، لأ، وصناعة سياحية، قبل قليل كان المذيع يقول: الصناعة السياحية، كيف صناعة وكيف سياحة، والله ما فهمتها، وهل نحن بحاجة إلى سياحة، هكذا، حتى يأتوا ويسوحوا في بلادنا، حتى يتفرجوا علينا، ويصورونا، تفوه، ليسمحوا لنا نحن بالسياحة، حتى نروح إلى بلادهم ونتفرج عليهم، لأ، نحن حرام علينا، وهم حلال عليهم.

ولدي يشدني من يدي، نبتعد عن المحل، يضع في يدي المكسرات وهو يقول:

. خذها.

. هي لك.

. لأ، لن آكلها، خذها أنت، الغبار يملأ المكسرات، سأشتري من المحل في العمارة مقابل شقتنا، المكسرات عنده محفوظة في أوعية خاصة وهي ساخنة، وللمحل واجهة زجاجية نظيفة لا تسمح بدخول الغبار.

ويصمت، ثم يضيف، وهو يشدني من يدي:

. بابا، متى سنخرج من السوق؟

أحس بصوته يختنق، يكاد يبكي.

أقول له:

. سأشتري لك الحلويات من سوق آخر.

. ما عدت أريد الحلويات، ولا أي سوق.

. ماذا تريد؟

. أريد الذهاب إلى الحديقة لأشم الهواء وألعب بالأراجيح.

المرآة...والسرير

. هذه هي المرآة، وهذا هو السرير، هنا كل ما بحثتِ عنه طوال السنوات الماضية، بعد طول صبر، هنا حظك، كما قالت لك جدتك.

تحس بيد تمتد نحوها، تمد إلى اليد يدها، يرفع كفها إلى فمه، يلثم بشفتيه راحة يدها، يلثم أصابعها إصبعاً إصبعاً، يشم يدها، يقبلها بهدوء ولطف، تحس بأنفاسه العطرة، خدر ناعم يسري في جسدها، تحس بالنبض، تتوهج، تشتعل، تشم رائحة جسمها، تشم رائحة رجل إلى جوارها، تدور أسطوانة، ينبثق نغم من بوق أصفر عتيق، نغم لم تسمع مثله قط من قبل، البساط الحريري الناعم يسير بهما معاً نحو السرير.

عصافير وأزاهير كانت مجرد رسوم من خيوط على الملاءة، الأزاهير تنفث عبقها وتتفتح وتتطاير، العصافير تحرك أجنحتها ترف بها وتحلق فوق رأسيهما وهي تغرد وتغرد، الفِراش يتثنى تحتهما مثل موج في بحيرة يميد بهما ويميل الفراش يتشرب رائحتهما فيجن، والسرير تجري في خشبه الأبنوسي حرارتهما فيتشقق ويرجع شجرة تضرب جذورها في عمق الأرض وتمد أغصانها إلى الغمام ثم تنثني مثقلة بالثمار المشتهاة من أصناف شتى، وسرعان ما ينفجر عين ماء في ظل الشجرة ويتدفق جدول فوق رمل ناعم وحصى أبيض شفيف ويحط زوجا حمام يحسوان من الجدول حسوات، والوسادة، أما الوسادة فقد تناثر كل ما فيها من

ريش أعناق إوز سويدي ناعم يُوصَى به للعشاق، كانا موعودين به منذ أزمان وأزمان.

*

هي لبنى ابنة العشرين، أحبت جدتها لبنى الحب كله، اسمها كاسمها، لبنى هي الجدة، ولبنى هي الحفيدة، مات أبوها، ماتت أمها، لم يكن لها من أخ أو أخت أو أي قريب، سوى الجدة العجوز، هي سفينة نوح، وهي نفسها من عمر نوح.

أنامل عجفاء نحيلة ليس فيها غير العظم والجلد، هي كلها كيس عظام، لا تكاد تزن أكثر مما تزنه حمامة، بل هي حمامة، وعينان غائرتان، في عمقهما بحار ومحيطات وأمواج، وشفتان هما خطان رقيقان أسودان، هما حكايات وأخبار وأقاصيص.

الجدة هي حياة لبنى، بلغت لبنى الخامسة والعشرين، والجدة ترعاها، بلغت الثلاثين، ولبنى لا تنفصل عن جدتها.

الجدة تقدم للحفيدة صورة، وتقول لها: "تأمليها".

وفي الصورة مرآة وإلى جوارها سرير، السرير من خشب الأبنوس الفاخر، مطعم باللؤلؤ والعاج، والمرأة متألقة، محاطة بإطار من خشب كالسرير، مزخرف مثله.

حظك مقسوم، قدرك مكتوب، سعادتك مخبوءة، وجودك الحق لن يتحقق إلا عند رجل يملك هذه المرآة التي في الصورة، وذلك السرير،

حيث وجدت مالكاً لهذه المرآة، وذلك السرير، فهو أنت، وأنت هو، ألقي بنفسك بين يديه.

هكذا قالت لها الجدة قبل عشرة أعوام.

وهي اليوم في الثلاثين.

ولكن كيف سأعرف السرير، كيف سأعرف المرآة، قد أجد مرآة مطابقة تماماً للمرآة التي في الصورة، وقد أجد السرير المطابق، ولكنه ليس هو.

صدقت، قالت الجدة.

عند قدم السرير نصف كلمة

النصف الآخر من الكلمة ستعكسه لك المرآة

إذا وجدت النصف هنا والنصف الآخر هناك وتكاملت الكلمة فالسرير هو السرير والمرآة هي المرآة.

وما الكلمة

قلت لك نصفها محفور في الخشب عند قدم السرير ونصفها الثاني مكتوب على زجاج المرآة، النصفان معا كلمة واحدة.

*

جدَّت في البحث وجدَّت وجدَّت، ما تركت محلاً لبيع المفروشات إلا قصدته، تحمل الصورة، حتى كادت تبلى بين يديها وهي تبحث، هذا يقول لها: ساصنع لك مثلها في سنة، وآخر يعدها بإبداع ما هو أجمل

منها في ستة أشهر، وثالث ورابع وخامس، والجدة تقول لها: ابحثي عن السرير نفسه والمرآة نفسها، لا عمن يصنع مثلهما، لا بد أن تريهما معاً.

قصدت محلات لبيع الأثاث القديم طافت الأسواق، عشر سنين وهي تبحث.

قصدت هواة جمع التحف النادرة والأثريات ولا شيء يشبه السرير أو المرآة.

فور رؤيتك للسرير لا بد من أن تقولي إنه هو.

لا يشبهه أي سرير.

وكذلك المرآة، إنما هي هي.

*

شاب وشاب آخر وثالث ورابع وخامس، تقدم إليها شاب بعد شاب، وهي تأبى إلا السرير الذي هو هو، وإلا المرآة التي هي هي، أحضر لها شاب سريراً ومرآة من بلاد الصين وشاب آخر أحضر لها سريراً ومرآة من الهند وثالث أحضر لها من اليمن ما أحضر.

وهي تقول: ليست هي، ليست هي، ليست هي.

*

هكذا قالت الجدة، وعن قولها لن أحيد، حياتي في صوتها، وجودي في أناملها، كياني في عمق عينيها، كينونتي راسخة في شفتيها، قولها هو القول، ووعدها هو الوعد، هي حياتي ونجاتي، لا لن أخون.

*

وظلت تبحث وتدور.

*

بلغت الخامسة والثلاثين، شارفت العجوز على المئة، أخيراً باحت لها:

. السرير والمرآة في دار مكتوب على بابها اسمك، هي دارك.

*

هامت على وجهها، سارت من غير هدف ولا اتجاه، تبحث في الشوارع والطرقات عن دار اسمها دار لبنى.

سخر منها الناس، اتهموها بالجنون.

تاهت في الطرقات، مزقت قدميها الأرصفة، ساقتها قدماها إلى حي قديم، حارات وأزقة ضيقة ملتوية، الأرض بلاط مفلطح تتعثر فيه الأقدام، نافذة تطل على الحارة المغلقة، تحتها قبو، دخلت فيه، في نهاية الحارة باب من حديد دقت فيه مسامير غليظة، الباب يناديها يقول لها تعالي إلي، أنا هنا.

وقفت أمام الباب، حارت في أمرها، شيء ما يشدها إليه، كوة فتحت وأطل منها وجه جدتها، مدت يدها، وإذ لا كوة ولا وجه، لا شيء سوى حديد صامت.

نظرت أعلى الباب، وإذا في الحجر بقايا حروف منقوشة هكذا تراءى لها أوهي محفورة حقيقة لا تدري، الحروف تقول: لبنى.

وتحرك الباب وفتح، وثمة صوت يسأل:

. من أنت؟

. لبنى

. هيا ادخلي، تأخرت كثيراً.

ذهلت، رأت وجه جدتها منعكساً على حديد الباب.

*

دخلت، دهليز ضيق، مشت بهدوء، انفتح الدهليز في نهايته عن فناء دار عمرها ألف عام وعام، طولها حوالى سبعين متراً، تتوسطها بركة تمتد على طولها، تحفُّ بالبركة أشجار، تنعكس صورتها على الماء، بطات بيض يسبحن بأمان، على حافات البركة حمامات، في البركة ثلاث نافورت، الماء يتقافز إلى أعلى وينهل رذاذاً ناعماً، ثمار التفاح تساقط فوق البركة، وتطفو على السطح.

على الجوانب غرف تعلوها غرف تعلوها غرف، ثلاثة أدوار، في الأدوار العليا أمام الغرف شرفات، تتدلى منها الرياحين والأزهار.

بلابل تصدح، طاووس طليق يتمختر.

في عمق الدار درجان يصعدان من الأرض في التفاف ناعم هادئ إلى شرفة عريضة.

مشت إلى العمق.

اختارت الدرج الأيمن، صعدت ببطء، أطلت من الشرفة على الفناء، نفحتها روائح الأزهار.

التفتت ودخلت في باب واسع ينفتح على بهو تتوسطه بركة صغيرة في وسطها نافورة يتقافز منها الماء وعلى حافاتها طيور من نحاس تصب الماء من أفواهها.

على اليمين إيوان وأرائك وأزهار، وعلى الشمال إيوان وأرائك وأزهار، وفي الصدر إيوان وأرائك وأزهار، دخلت إلى الإيوان الذي في العمق.

على الجانب الأيمن باب.

سارت نحوه ببطء شديد، دفعته، ودخلت، أثاث فاخر من خشب الأبنوس كله مطعم باللؤلؤ والعاج في الصدر سرير، وإلى جانبه مرآة.

نظرت عند قدمي السرير رأت حرفين: نى

تقدمت من المرآة، شفت المرآة عن حرفين: لب.

همست:

. لبنى

أعادت النظر إلى المرآة، وإذا هي في ثوب الزفاف الأبيض وإلى جوارها في المرآة طيف رجل في بدلة الزفاف السوداء.

ثم غابت من المرآة وغاب.

*

تنسدل الستائر، ويعم الظلام.

وينهمر عليها الصوت قادماً من السماء:

. هذه هي المرآة، وهذا هو السرير، هنا كل ما بحثت عنه طوال السنوات الماضية، بعد طول صبر، هنا حظك، كما قالت لك جدتك.

تحس بيد تمتد نحوها، تمد إلى اليد يدها، يرفع كفها إلى فمه، يلثم بشفتيه راحة يدها، يلثم أصابعها إصبعاً إصبعاً، يشم يدها، يقبلها بهدوء ولطف، تحس بأنفاسه العطرة، خدر ناعم يسري في جسدها، تحس بالنبض، تتوهج، تشتعل، تشم رائحة جسمها، تشم رائحة رجل إلى جوارها، تدور أسطوانة، ينبثق نغم من بوق أصفر عتيق، نغم لم تسمع مثله قط من قبل، البساط الحريري الناعم يسير بهما معاً نحو السرير.

*

مع نسمات الفجر الأولى تحس بالبرد، تفتح عينيها، تهم بالنهوض، السرير من تحتها يرتعش، يهتز، يتفكك، مع نزولها إلى الأرض يتداعى ويصبح مجرد قطع مفككة.

تسرع إلى المرآة، ترى جدتها.

تدنو من المرآة أكثر فأكثر.

ليس في المرآة غير الجدة.

تسرع إلى البهو، البركة الصغيرة جافة.

تسرع إلى الشرفة، الحجارة تحت أقدامها تتحرك، تتداعى، تسرع بالهبوط على الدرج، الأدراج تتداعى، تنهار.

البركة الكبيرة غيض ماؤها، البطات ميتات، الأشجار عارية، جو ثلجي بارد.

تصل إلى الدهليز، صوت بهتف بها:

. اخرجي من باب الخدم، من المطبخ، في الجهة المقابلة، في القبو، تماماً تحت الغرفة التي نمت فيها.

تركض إلى الجهة المقابلة، إلى صدر الدار، وكل شيء بدأ ينهار، تهبط إلى القبو، تركض نحو المطبخ، تلتفت، الدار كلها تداعت.

تخرج من باب الخدم، وإذا هي في مقبرة.

ثمة رجال يحملون تابوتاً يسرعون به، وهم يغمغمون.

*

تصل إلى دارها.

تبحث عن جدتها، لا تجدها.

ذات صباح تسمع دقات ناعمة على الباب، تمشي إليه بخطا بطيئة، تفتحه:

. سيدتي، يسرني أن أتقدم إلى خطبة حفيدتك لبنى، عندي سرير حُفِر عند قدمه نى، وكتب على المرآة لب.

شاب هو زنبق أبيض مشرب بالحمرة متفتح.

ويمد إليها يده بورقة، ويتكلم:

. وهذه صورة السرير والمرآة.

تتأمل الصورة صامتة، تسأله:

. **من أعطاك الصورة؟**

. جدتي، وقالت لي: ابحث عن لبنى صاحبة السرير والمرآة.

تبكي، تمسح دموعها بالصورة، تتكلم بصوت راعش:

. يا ولدي، لا تصدق جدتك، لا تصدق الحكاية، حاذر من الذهاب إلى دار لبنى، اكسر المرآة، حطم السرير، احرقه، لا تبحث عن لبنى.

الشاب يتوسل إليها:

. لا تخفي عنى لبنى، أرجوك، أنت الجدة العجوز، أريد حفيدتك، لبنى الشابة.

. أنا لبنى الحفيدة، جدتي ضيعت عمري، لا تكرر مأساتي، أنا لبنى الشابة، لا تصدق جدتك العجوز.

يخطف من يدها الصورة ويمضي، وهو يصيح:

. مجنونة، سأظل أبحث عن لبنى.

الشاب يمضي.

لبنى العجوز الشابة تتذكَّر الرجل الذي أمضت الليل معه في السرير:

كان أنيقاً جداً، لطيفاً جداً، لكن أصابعه كانت نحيلة، مثل أصابع جدتي، مجرد جلد على عظم.

والآن يجيء هذا الشاب ليحقق مثلي وصية جدته.

ليته يأخذ بنصيحتي.

فلا يكرر تجربتي.

صبارة صغيرة

أُسْرِع إلى صعودِ درج المصرف.

روائح أجساد ودخان سكائر، ولغط وضوضاء وزحام، أقرأ اللوحات فوق الكوى الزجاجية، أقف أمام كوة في رتل يمتد بطول ثلاثة أمتار يصطف فيه عشرون شخصاً، وسرعان ما يقف ورائي أربعة رجال أو خمسة، وأنا ألوح بالشيك أمام وجهي لعله يأتيني بهواء نقي.

رجل ورائي يقول لي:

. هل وقَّعت على الشيك من المديرة قبل عرضه على الموظف؟

أقول له مستاء، بنبرة حادّة، وأنا أحسبه يريدني الخروج من الرتل:

. وهل من الضروري توقيعه من المديرة أولاً؟

يردّ ساخراً وابتسامة تعلو وجهه:

. طبعاً، أنت هذه أول مرة تقبض فيها؟

أردّ بعصبية:

. نعم، هناك دائماً أول مرة في حياة الإنسان، ولو بلغ المئة.

وأخرج، من الرتل، ثم ألتفت إليه، وأقول:

. دوري في الرتل هنا أمامك، لا تنس.

يشير بيده إلى غرفة داخلية وهو يقول:

. المديرة هناك، لا تخف، لن يذهب دورك.

أخترق الزحام، أدخل بين الأجساد، لا أعرف لماذا هذا الزحام؟ المشكلة في المبنى لا في عدد المراجعين، المبنى صغير، كأنه أسس لقرية لا لمدينة.

أدفع الباب الزجاجي وأدخل، سيدة في نحو الأربعين، أو تجاوزتها، ممتلئة الجسم، ملتفتة إلى حاسوب بجوارها تعمل عليه، جانبها الأيسر أمامي، لا أرى سوى شعرها الأشقر الطويل المسدل على كتفها وهو يغطي جانباً من وجهها، يميزها أنف دقيق ناعم، تلتفت، يا إلهي، إنها هي، تراني، تحدق بي لأقل من ثانية، ثم تنهض، تمدُّ إلي يدها مصافحة، وهي ترحب:

. أهلاً بالدكتور علاء.

أناولها الشيك، تأخذه مني، وهي تشير إلى مقعد جلدي عريض أمام مكتبها، وتقول:

. تفضَّل، تفضَّل.

قميص أصفر ضيق مشدود على ثديين ممتلئين، يشف عن حمالة سوداء، في الصدر قطعة ذهبية متألقة تحملها سلسلة ناعمة، عينان سودوان واسعتان مكحولتان وعلى الجفون أخضر فاتح كورق الكرمة أول تفتحها، النظرة ذكية متفحصة كأنها تقرأ أرقاماً تدقق فيها.

تضع الشيك على السطح الزجاجي للطاولة إلى جانبها، تضع فوقه كأساً زجاجية فارغة، تثبته حتى لا يطير من هواء المروحة التي تدور فوق رأسها، على المنضدة أمامها علبة تبغ وقداحة ومنفضة

سكائر، على يمينها ثلاثة هواتف، على يسارها أوراق كثيرة مكدَّسة، في مقدمة الطاولة ثلاثة أصص فخارية صغيرة لطيفة جداً، في كل أصيص صبارة كروية الشكل، في إحداها زهرة صفراء متفتحة.

تتكلم وعيناها مثبتتان في وجهي، وشفتاها المكتنزتان تنفرجان عن ابتسامة ترحيب ناعمة فتتألق غمازتان في خدين مورّدين:

. أهلاً، ما هذه المصادفة الجميلة؟ ما كنت تتوقع أن تراني هنا! هذه من غير شك أول مرة تدخل فيها إلى هذا البنك، أنا هنا مديرة منذ خمس عشرة سنة، عملت فور تخرجي رئيسة قسم الحسابات، بعد خمس سنوات قفزت فوراً إلى مديرة فرع، مر أكثر من عشرين سنة ما التقينا فيها، ما شاء الله، هذا هو أنت، لم تتغير، طول، ونحافة، ولا كرش للوجاهة، أنا تغيرت بسبب الحمل والولادة والأولاد، ثلاثة أولاد عندي، الكبير الآن يتخصص في الجراحة العامة، وهدى تخرجت مثلي العام الماضي في كلية التجارة والاقتصاد، فوراً عيّنتُها عندي هنا، هي هناك في الكوة الخامسة، كنت حولتك إليها، لكن كوتها لاستلام الأموال لا لصرف الشيكات، أيمن آخر العنقود، نال السنة الماضية الشهادة الثانوية وسافر إلى إيطاليا لدراسة فن الإخراج، هوايته السينما والمسرح، راسل أحد المعاهد وحصل على منحة، تعبت في تربيتهم، في ست سنوات أنجبتهم الواحد وراء الآخر، ثم عُنِيتُ وحدي بتربيتهم، لم أتركهم لوالد لا يقدر معنى الأسرة، لا يقدر لا الزوجة ولا الأولاد ولا يفهم معنى البيت، على كل حال خلصت منه، الحمد لله، لا أعرف كيف

أمضيت معه ست سنوات، المهم حريتي، طلبت منه الطلاق، وعمر أيمن أقل من سنة، تخلَّيتُ له عن كل شيء، كان عليَّ طلب الطلاق من أول يوم، لا أعرف كيف صبرت عليه ست سنوات، سكير، معربد، وحش، لا يقدِّر المرأة ولا يحترمها، طبيب، لكنه لا خبرة لديه في الحياة الاجتماعية، متخلِّف إلى أقصى حد، جحيم لا يطاق، الآن عندي شقة فيها خمس غرف، في أجمل حي، هو حي الرياض، في شارع الصفصاف، قرب مستوصف التقوى، بناية السلام، في الدور الثالث، عندي شرفة أمامية، مطلة على حديقة صغيرة، وشرفتي نفسها حديقة، الآن أنا وحدي، حياتي ملكي، حريتي هي الأهم، هدى تزوجت، زوجها مهندس، رجل مجتمع وصاحب ذوق، والكبير صالح تزوج فور تخرجه، زوجته مثله، وهي الآن تتخصص معه في الجراحة العامة، ستكون أول طبيبة جراحة عامة في المدينة كلها، أيمن، كما قلت لك، نال الشهادة الثانوية وحصل على منحة دراسية في إيطاليا، للتخصص في فن الإخراج هوايته المسرح والسينما، سامحني، أحياناً أكرر الفكرة أكثر من مرة، هذا بسبب طبيعة عملي، لا بد من التدقيق، وتكرار العملية الحسابية.

ويدخل مواطن وبيده شيك، تبادره بالقول، وهي تشير بيدها إلى غرفة مقابلة:

- راجع المدير المعاون.

وترفع الهاتف الجوال إلى أذنها، وتتكلم:

ـ حسين، ابق عند باب الفرع، أي مواطن معه شيك اطلب منه توقيعه من المعاون، أنا عندي ضيف، واطلب من أبو خليل إحضار فنجانَيْ قهوة من غير سكر.

ثم تلتفت إليَّ وتقول:

ـ أعرف قهوتك، من غير سكر، كنت أنت دائماً تردِّد: "لا أشربها إلا مُرة، مثل هذه الأيام"، لا أظنك غيرت عادتك، أعرفك، طبعك عنيد، ولا أظن الأيام صارت حلوة، هل صارت حلوة؟ لا أظن.

وتتناول علبة تبغ من على سطح المكتب، تتقدم بها إلي وهي تقول:

ـ تفضل، وإن كنت أعرفك لا تدخن، قلت لعل الأيام جعلتك تدخن.

ـ أشكرك، أرجو توقيع الشيك.

تضحك، تتألق الغمازتان في خدَّيها، تعلّق:

ـ لماذا العجلة؟ بخمس دقائق تقبض، لا تهتم.

وتمد يدها نحو الشيك، ترفع الكأس من فوقه، ولكن لا تلبث أن تغطيه بها، مرة ثانية، من غير أن تنظر فيه، وتتكلَّم:

ـ أنا حكيت الكثير عن نفسي، لكن أنت ما حكيت لي، أنا أعرف، أنا لا أترك لغيري فرصة للكلام، هذه هي عادتي، أعرف نفسي، وأنت تعرفني من زمان، ثرثارة، من أيام الجامعة، تتذكر عندما كنا نقعد أنا وأنت في المقصف، ما كنت أترك لك فرصة للكلام، بالمناسبة، وقبل ما أنسى من شهرين أو ثلاثة، رأيتك مع زوجتك، في شارعنا، كنت أنا في

الشرفة، تمنيت لو أنك مررت أمام العمارة، والله كنت ناديتك، حتى تشرب القهوة عندي مع زوجتك، بالمناسبة زوجتك حلوة، أنا شاهدتها من بعيد، لكن فجأة انعطفت أنت وهي في الشارع قبل عمارتنا بثلاث عمارات.

وتشعل سيكارتها ثم تتابع:

- لكن زوجتك ما هي أحلى مني، قل لي: أما عودتك زوجتك على التدخين؟ لو تزوجتني كنتُ عودتُك على التدخين، احمد ربك ما تزوجتَني، كنت طلقتُك مثل ما طلقت زوجي، على كل حال ما عاد يهمني الأزواج ولا الرجال، عندي شرفتي، آه لو تراها، هنا أفكر بالأرقام والنقود، وهناك أعد الأزهار والورود، أوه، صرت شاعرة، هل تتذكر يوم كنتَ تكتب القصائد وتُسمِعها لي، وتقول لي: ما رأيك فيها؟ وأسألك: لمن هذه القصائد؟، وتقول: لابنة الجيران، وأنا أعرف، كنتَ تكتبها لي، لا شك الآن ما عدت تكتب الشعر، قل لي: لماذا لم تتزوج واحدة من فرنسا؟ هل كان لك هناك عشيقة؟ أعرف تم تعيينك معيداً ثم أوفدتَ فوراً إلى فرنسا، ولم تعد تسأل، كأنه لم يكن عندك هنا "ضياء"، أنوار باريس أنستك "ضياء"، أنا ما فكرت بالدراسات العليا، أنا تخرجت بعدك بسنتين، فتنني ذلك الطبيب، والحقيقة خدعني، تزوجت وأنا في نهاية السنة الثانية، تسرعت، أعرف أني أخطأت، عرفت أنك لن تتزوجني، على كل حال، أنا نادمة وغير نادمة، والله لو رأيتَ الشرفة عندي لرجعتَ لأيام زمان وكتبتَ ألف قصيدة، عندي عريشة ياسمين،

يتدلَّى تحتها قفص فيه كناري أصفر صوته يجنِّن، تغريده قصيدة، وعلى سور الشرفة أحواض الزهور، ورد وفل وقرنفل وأضاليا ولكّيّة وهرجاية وعطرية زهرها ناعم.

وتشير إلى خديها وتضيف:

ـ مثل غمازاتي، عندي ورد أحمر وأبيض وأصفر، قرنفل أحمر متفتح مثل بركان نار على نار، وفي الزاوية عندي شجرة كاردينيا، أوه لو ترى، الكاردينيا رائحتها في الصباح ما أحلاها! تشم فيها الورد مع الفل والياسمين، وعندي في غرفة الجلوس لبلابة وزهر الهوى وسجادة حمراء وورق الليمون، تظن نفسك في غابة.

وتنهض من وراء المكتب، تحمل هاتفها الجوال، تفتحه، تقلِّب الصور، تدنو مني، أهم بالنهوض، تقول:

ـ تفضّل، تفضّل، ابق مكانك، أنا سوف آتي إليك.

تقترب مني، تدنو، يغمرني شذاها، عبق جسدها ينفذ إلى مسامي، تقعد إلى جواري على حافة المقعد الجلدي العريض، تضع أمام عيني الجوال، وهي تشير بإصبعها، صدرها الممتلئ يندلق أمامي، أحس بالعبير يسري بين الثديين، تنفحني أنفاسها العطرة، وهي تميل عليّ، تبدأ بتقليب الصور.

ـ هذه هي الكاردينيا، ما أحلاها في الليل، رائحتها تملأ الشرفة، وهذا هو القرنفل، بركان نار، وهذا هو الورد الأحمر، دم العشاق، وهذا الورد الأصفر، زوجي، كان أكره شيء عنده الورود والزهور، لا يميز

الورد الجوري من زهر الأضاليا، ولا اللكية من القرنفل، هذه هي اللكية، يا إلهي ما أحلاها، صحيح هي شكل ولا رائحة، ولكنها كريمة، تعطي من قلبها، آخ على قلبي أنا، كم أعطيت وضاع، الزهر تعطيه فيعطيك أكثر، إلا الإنسان.

ويدخل الآذن، يحمل القهوة، تلتفت إليه:

. أبو خليل، ضع فنجاني على المكتب، وتعال بالله عليك انظر إلى هذا النوع من الزهر، وقل ما اسمه؟

أبو خليل عجوز في الستين، يتقدم على استحياء، ينظر في الهاتف الجوال، يحدِّق، ثم يتكلم:

. هذه الأضاليا.

. وهذا؟

. قرنفل.

. وهذه؟

. ياسمين.

. وهذا؟

الآذن يتأمل، يصمت، تتكلم هي:

. هذا زهر الجميل.

وتعلق:

ـ نعم، أحسنت، زهر لجميل، رقيق لطيف وناعم، مثل عيون ناعسة، أتعبها السهر.

وقبل خروج أبو خليل، تقول له:

ـ أحضر لي أي شيء، جريدة مثلاً كي ألف بها هذه الصبارة الصغيرة، هدية لصديقي الدكتور علاء.

وترجع إلى موضعها وراء المنضدة، تشير إلى الأصص الفخارية الصغيرة المستقرة أمامها في مقدمة المنضدة، وتقول:

ـ هذه الصبارات الصغيرة الناعمة، يا إلهي كم أنا مفتونة بها، سأهديك هذا الأصيص، في غرفة الضيوف عندي، آه لو تزورني في يوم وترى، عندي حديقة يابانية صغيرة على المنضدة الصغيرة في وسط الغرفة، وحولها أصص الصبارات، هل تعرف، حتى الشوك له زهر أبيض أو أصفر ناعم، ما أحلاه، بعض الزنبق يعطي في السنة زهرة واحدة، وهناك زهرة قطبية تعطي في العمر زهرة واحدة، لكن، للأسف، بعض الأشخاص ما عندهم غير الشوك، طول عمرهم لا يمنحون هذا الكون ولو زهرة.

تصمت، تسألني فجأة:

ـ هل تحب زوجتك الزهور؟

ـ نعم.

تعلق:

ـ هي لا تحبها مثلما أحبها أنا، أنا أعرف، لو كانت تحبها حقاً لكنتَ قلتَ: نعم تحبها، بل كنت قلت تحبها تعشقها تموت فيها، لا أحد مثلي يحب الزهور، هل رأيت أبو خليل؟ هو بنفسه يذكرني دائماً

بالزهور في النافذة، يسألني: هل سقيتها؟ يستأذنني: هل أرفع الستارة؟ هل أسدلها؟ كأنه يتمنى لو يرعاها بنفسه، هل تعرف كيف أسقيها؟ أنا لا أصب الماء رأساً على التراب، أنا أحمل كأس الماء وأصب منه على يدي على أصابعي، ومن أصابعي ينزل الماء على التراب، كي تحس الوردة بدفء يدي، حتى تدرك أن هناك من يعنى بها ويهتم، لتشرب من أصابعي العطر والدفء.

يرن جرس الهاتف، تنظر إليه باشمئزاز، ترفع السماعة، ترد بعصبية، وأصابعها تداعب الزر في قميصها:

. عندي اجتماع، حوِّلي المكالمات للمعاون.

تلتفت إلي، تتابع حديثها، وهي تبتسم، والغمازتان في خديها تتضحان شذى:

. هل تعرف، هذه الزهور هي عيون وشفاه وأنامل، عندك زهرة البنفسج هي أنملة ناعمة، القرنفلة فم مندفع من أجل قبلة، والنرجس عيون ناعسة، والياسمين ابتسامة، والورد نظرة، والزنبق، ماذا أقول لك عن الزنبق؟ لا أعرف بماذا أشبِّهه؟ ولا سيما الزنبق الأبيض المُشْرَب بالحمرة والمنتصب مثل صاروخ سكود يحمل في رأسه قذيفة متفجرة، قنبلة ذرية، يورانيوم، أوه.

تضحك، وتضحك، تضع الفنجان من يدها، تطفئ السيكارة، تستل من العلبة سيكارة أخرى، تشعلها، وهي تعلق:

. اليوم نفسي منفتحة على الشعر، زوجي لا يحب الزهور بكل أنواعها، أنا أعرف، كان يغار منها، وخاصة الزنبق، وأنا أموت في الزنبق، ما أروعه! وعندي رياحين، هي أنامل ناعمة، راحة كف مبسوطة للمس والتقبيل والشم واللثم، في المطبخ عندي أصص رائعة فيها حبق وريحان وصعتر ونعنع، وعندي نبتة رائحتها هي رائحة علكة الشكلتس، آه لو تشم، تفضل بزيارتي، سأكون سعيدة جداً، أنا قلت لك ما عندي أحد، حتى بنتي مشغولة بزوجها وبنتها، لا تزورني في الشهر مرة، لأنها معي هنا دائماً، وابني في بيته مع زوجته، تفضل أنت وزوجتك إذا أحببت، أو تفضل وحدك.

وتنهض عن كرسيها البرام، وهي تقول:

. تفضل، تعال إليَّ، تعال إلى هنا، لك عندي مفاجأة، تعال لترى ماذا وراء هذه الستارة، تعال انهض، تفضل.

وترفع ستارة مسدلة وراء ظهرها، فتنفتح عن نافذة عريضة مملوءة بأصص الزرع.

أقول:

. أنا أراها من مكاني.

. لأ، تعال إلى هنا.

وأنهض، أقترب من كرسيها البرام، نصبح معاً وراء المنضدة، قبالة النافذة، تشير بيدها إلى الأصص وكلها ملأى بشجيرات القرنفل، ما بين أحمر وأصفر وأبيض، وهي تقول:

ـ هذا هو القرنفل، كما قلت لك، كل قرنفلة تختلف عن الأخرى، هذه الحمراء بركان متفجِّر، أو فم يشتهي قبلة، وهذه البيضاء، ماذا أقول هي نهد ثائر لصبية شابة، وهذه الصفراء زجاجة شراب سعال لمريض عجوز، طبعاً، كل إنسان له زهرته، ولكل عمر وردته، أنا بصراحة لا أحب الأصفر.

أنظاري تتركز على قميصها الأصفر، وهو يشف عن حمالة نهدين سوداء، تلحظ هذا، تضحك، تقهقه، وتعلِّق:

ـ نعم، أنا أكره الأصفر، ولكنه يليق بي، ما رأيك؟

ـ هذا أكيد.

تضحك، وتضيف:

ـ قل: نعم، أكيد، يليق بك، ولا يليق لغيرك.

تضحك، وتضحك، ثم تعلق:

ـ وأنا ألبسه لأغيظ أعدائي، أقهر حسادي.

تلتفت تتناول فنجانها، تحسو منه، ثم تصب بقيته على أصيص القرنفل الأحمر، وهي تقول:

ـ أنا أسقي زروعي القهوة، هي تشاركني حياتي، كل صباح أشرب معها القهوة، وأسقيها، وتظل مثلي دائماً في صحو، لا ينال منها الذبول.

أتحرك من مكاني، تلكز كتفي بأناملها، وهي تقول:

ـ ماذا بك؟ مد يدك اقطف قرنفلة، شم رائحتها.

. لا، اتركيها، هي على الشجرة أحلى.

. لأ، هي في يد العاشق أحلى.

وتقطف قرنفلة حمراء قانية، تضعها تحت أنفي، وهي تقول:

. شم، وقل: هي بهار؟ هي فلفل؟ هي جسد يشتعل؟

أظفارها المطلية بالأحمر القاني أمامي، أشم رائحة يدها، أكاد أمسك يدها، ولكني ألتفت إلى المنضدة، أحمل الشيك من تحت الكأس، أضعه أمامها، وأنا أقول:

. أرجوك، ضعي توقيعك هنا.

تأخذ الشيك من يدي، تقلبه على وجهه فوق المنضدة، وهي تقول:

. تفضل اقعد، لا تستعجل، الحديث ما انتهى، لا تنس أكثر من خمس وعشرين سنة مرت، ما رأيتك فيها، ولن تأتي إليَّ كل يوم بشيك، وأعرفك، لن تزورني مرة ثانية.

أرجع إلى موضعي أمام مكتبها، أقعد على حافة المقعد، كمن يهم بالنهوض، أتناول فنجان القهوة، أرشف منه، تشم القرنفلة، تضعها على المنضدة أمامها، وهي تتكلم:

. لن أعطيك القرنفلة، أعرف، وأنت لن تأخذها، أنت تخاف من زوجتك.

. لا أخاف.

. لو كنت حقيقة لا تخاف كنت قطفتها ونحن هناك أمام النافذة وأمامنا أكثر من عشرين قرنفلة بيضاء وحمراء وصفراء، وليس هناك

لوحة مكتوب عليها: ممنوع قطف القرنفل، لكن أعرفك، اللوحة موجودة في داخلك.

أقاطعها فأقول:

. أرجو ألا تنسي الشيك.

. أنا ما نسيته، لكن حاول أنت أن تنساه، ليس الشيك أهم مني، دعنا في الأهم، قل لي: زوجتك ربة بيت؟

. نعم.

. عرفت هذا.

. وكيف عرفت؟

. أقصد توقعت هذا، أنا أعرفك، وأعرف مزاجك وطباعك.

تنفث دخان السيكارة، تغمس إصبعها في قعر الفنجان، تلعق الثمالة بعصبية، وتعلق:

. اتركنا من موضوع الزوجة والأزواج، ما عاد هذا الموضوع يهمنا، ونحن في هذا العمر، قل لي هل استلمت أي منصب إداري في الكلية، أم هل اكتفيت بعملك أستاذاً؟

. أستاذ، وهذا كل طموحي.

تنفث دخان السيكارة، تدق بقبضتها على زجاج المكتب أمامها، تعلق:

. آخ، أنا لست مثلك، أنا لو كنت في الجامعة، لكنت في سنة أوسنتين استلمت العمادة، وبعدها فوراً إلى رئاسة الجامعة.

وتصمت ثم تضيف:

. أنا مع بداية الشهر القادم سأستلم عملي مديرة البنك المركزي، القرار الآن في الوزارة، ينتظر توقيع السيد الوزير.

أعلق:

. نجاح دائم.

تضيف:

. وبعدها، إن شاء الله، إلى الوزارة، مع أول تشكيل وزاري جديد، أنا موعودة بهذا.

ويدخل الآذن يحمل كيساً ورقياً فاخراً مما توضع فيه الهدايا، تتناوله منه، وتحمل الأصيص الصغير، تضعه في الكيس، بأناقة مفرطة، وهي تقول:

. شكراً يا أبو خليل، والله أنت صاحب ذوق.

أبو خليل يعلق:

. أنت معلمتي.

ويلتفت إليَّ ثم يضيف:

. والأستاذ يستحق ما هو أجمل.

ضياء تتكلم مشيرة إلي:

. الدكتور علاء، أستاذ في كلية الاقتصاد والتجارة، زميلي أيام الدراسة، وصديق العمر.

أبو خليل ينحني احتراماً، ويقول:

. تشرفنا دكتور.

أبو خليل يخرج، تعلق:

. رجل شبه أمي، ترك المدرسة من الصف السادس، لا حظ هذا الكيس الورقي الفاخر، يصلح لتضع فيه قطعة ذهبية، ما هو مثل زوجي، لا يعرف القرنفل من الياسمين، على كل حال، أنا الزهور أغلى عندي من الذهب، سأتركه هنا على المكتب إلى أن تقبض الشيك، ثم ترجع فتأخذه، وبالمناسبة، حتى لا أنسى، هذا النوع من الصبارات المنزلية مفيد جداً، فهو يمتص الموجات الكهرطيسية الصادرة عن التلفزيون، ويقلل من خطر الإصابة بالسرطان، وإذا زوجتك لا سمح الله، وهي تصنع القهوة، أحرقت إصبعها، فلتقطع الصبارة، وسيخرج منها سائل لبني لزج، هذا مضاد للحروق، وأقول لا سمح الله.

وأشير إلى الشيك، فتقول:

. سامحني، أخرتك، أعرف نفسي ثرثارة، خاصة مع الناس الذين أرتاح إليهم.

وتتناول الشيك، وتمسك بالقلم، وتهم بالتوقيع في الزاوية العليا منه، ولكنها سرعان ما ترفع رأسها وتهتف:

. أوه، لا يجوز، مستحيل، لم يكتبوا اسم الأب.

أقف مدهوشاً، تمد يدها إليَّ بالشيك وهي تتكلم:

. آسفة دكتور علاء، والله أنا آسفة جداً، لا يمكن صرف الشيك، لا بد من كتابة اسم الأب، ووضع الختم فوقه، الموضوع بسيط، تأخذ

سيارة أجرة في ربع ساعة تذهب إلى الجامعة، ويضاف اسم الأب وفوقه الختم.

أحاول الكلام، تنهض، تقف، يدها ماتزال ممتدة بالشيك، تناولني إياه:

ـ ما يزال عندنا متسع من الوقت، الساعة الآن الثانية عشرة، هل تريد؟ سأرسل معك السائق، في سيارتي.

. **لأ، وشكراً، سآخذ سيارة أجرة.**

تشير بيدها إلى الباب، وهي تقول:

ـ فوراً أسرع.

لا أجد ما أقول، أتناول الشيك منها، وأهم بالخروج، تتكلم:

ـ سأبقى في انتظارك، أصيص الصبارة هنا ينتظر عودتك.

أدخل في الأجساد المزدحمة، العرق يتصبب مني، أكاد أختنق، عند الباب أتعثر، أكاد أقع، يراني الآذن، يرى الشيك بيدي، يستوقفني، يسأل:

ـ خير، أستاذ، لم تصرف الشيك؟

أقول له:

. **المديرة رفضت صرفه، اسم الأب غير مكتوب.**

يتناول الشيك من يدي، يستل من جيبه قلماً:

ـ لا تهتم، أنا سأكتب اسم الأب.

ـ والختم؟

. لا تهتم، أنا سأوقعه لك من معاون المديرة.

. لا، وأشكرك، الآن كنت في ضيافتها، وهي زميلتي، كنا معاً في الجامعة، ولا أريد إحراجها، وأنا دارس تجارة واقتصاد، وأنا أستاذ في كلية الاقتصاد وأعرف القانون.

يضحك، يناولني الشيك، ويعلق:

. ولكن أستاذ، هناك دائماً أشياء وأشياء كثيرة فوق القانون، كان بإمكانها صرف الشيك، وهي مثلما قلتَ أنت كانت زميلتك، كان من الممكن أن تكتب: "بمعرفتي"، وتوقع، أنا بصراحة هنا أرتزق من مثل هذه الحالات، كل يوم أحل عشر مشكلات من هذا النوع.

. وتعرف هي ذلك؟

الآذن يضحك، يعلق:

. أحياناً تعرف، وأحياناً لا تعرف، وفهمك كفاية.

أهم بالمضي، فيقول لي:

. اذهب إلى فرع ١١ بعد هذا الشارع بشارعين.

*

المدير في الفرع ١١ يوقع على الشيك، وهو يقول:

. هذا الشيك يجب أن يصرف من الفرع ١٣ لأن حساب الجامعة فيه، ومع ذلك، تكرم يا دكتور، سنصرفه لك من فرعنا، وبيننا وبين الفرع ١٣ حساب مفتوح.

المدير يناولني الشيك، ثم ينهض، ويمد يده مصافحاً.

*

زبائن كثر في الفرع ١١، أكثر مما في الفرع ١٣، ولكن لا تحس بوجود زحام، الهواء مكيف، الفرع واسع ومُضاء ونظيف.

بعد ربع ساعة، أخرج من الفرع ١١ وقد قبضت المبلغ، ولم يسألني المدير عن اسم الأب.

*

هل أعود إلى زميلتي "ضياء" لآخذ منها الصبَّارة هدية؟

هل يستحق المساعدة؟

عملتُ قبل بضع سنين في جمعية خيرية، تقدم المساعدات إلى المحتاجين، وكنت عضواً في لجنة من ثلاثة أعضاء مهمتها زيارة طالبي المساعدة، والاطلاع على أوضاعهم في المنزل، وتقدير مدى استحقاقهم للمساعدة. وفي إحدى جولاتنا زرنا رجلاً في الخامسة والستين، تقدم بطلب لإجراء عملية تغيير مفصل في الركبة، والعملية تكلفه أربعمئة ألف، وقد صرح في الطلب بأنه يستطيع دفع مئة وخمسين ألفاً، ويرجو من الجمعية مساعدته في باقي المبلغ. وقد لفت نظري هذا التصريح، لأن كل طالبي المساعدات من هذا النوع كانوا يطلبون المبلغ كاملاً زاد أو نقص. وفي الموعد المحدَّد توجهت مع زميليَّ الاثنين إلى زيارة الرجل في شقته.

العنوان واضح وسهل، ولكنه مفاجئ، فهو يسكن في حي من الأحياء الراقية، لم يكن متوقعاً أن يسكن فيه، بل لا يتناسب وطبيعة عمله، وقد تقاعد، كنا نتوقع أن يسكن في حي فقير متواضع، وقلنا لعله يسكن في شارع فرعي من ذلك الحي، لكن مما زاد في دهشتنا أن العمارة في شارع رئيسي، وقد صرح في الطلب أن الشقة ملكه وليست مستأجرة، وكدنا نقرر فوراً أنه لا يستحق المساعدة، أو قد نكتفي بالمساعدة بمئة ألف.

نزلنا إلى الشقة، نفحتنا روائح عطرة لمواد التنظيف، وكأنه غسل الدرج قبل قدومنا، الدرج نظيف ولامع، وعلى الأرض أمام باب الشقة قطعة من سجاد، لتدوس عليها الأقدام، وليس قطعة قماش عادي أو قطعة بلاستيكية، وقد اضطررنا لمسح أحذيتنا نحن الثلاثة قبل قرع الجرس.

ولدى قرع الجرس تناهى إلى سمعنا صوت جرس يعزف ألحاناً جميلة، وبرز لنا الرجل على الفور، متألق الوجه، حليق اللحية، لامع الشعر، وإن كان أبيض من الشيب، يرتدي قميصاً نظيفاً، وبنطالاً حدُّه كحد السيف، كأنه جاء به للتو من عند الكوّاء، وكان يستند على عصا، لها مقبض من العاج، وفي كعبها كستبان نحاسي، وفي وسطها طوق فضي مزخرف، وكان الممر مفروشاً بسجاد ناعم، نظيف، وسرعان ما قادنا إلى غرفة الضيوف، كان فيها أربعة مقاعد عريضة، على مساندها وعلى أطرافها مناديل قماشية بيضاء مطرزة لحمايتها من الغبار، وثمة أريكة طويلة، وفي الوسط سجادتان صغيرتان، ركز فوق كل واحدة منضدة صغيرة، اتخذنا أماكننا في المقاعد، والرجل يرحب بنا، في الجدار الذي يتصدر الغرفة خزانة خشبية من ثمانية رفوف فيها كتب، وفوقها ساعة، وباقي الجدران حافلة بلوحات ذات أطر مختلفة، ثم دخلت علينا زوجته وهي تحمل صينية كريستالية، فيها فناجين قهوة تشبه طائر الطاووس، وسرعان ما نفحتنا رائحة القهوة بالهال، وكانت القهوة من النوع الفاخر.

ثم حدثنا الرجل عن ولديه الاثنين، أحدهما يدرس في كلية الحقوق، والثاني يستعد لامحان الشهادة الثانوية، وليس عنده غيرهما، ثم أشار إلى غرفتين أخريين، إحداهما للجلوس ونوم الولدين، والثانية له ولزوجته، وبعد ارتشاف القهوة قادنا إلى فسحة صغيرة، وفي الفسحة أصص ورد، وقفص معلق في الجدار فيه كناري، ثم أشار إلى المطبخ وقال: مطبخي مكتمل، عندي ثلاجة ومجمِّدة وغسالة، وأطللنا على المطبخ من غير أن ندخل إليه.

وهو يودعنا عند الباب قال: "شكراً لزيارتكم، وقد رأيتم بعينكم، والطلب بين أيديكم، وكما قلت لكم، قدرتي هي دفع مئة وخمسين ألف ليرة، زوجتي باعت سوارها الذهبي، هو هديتي لها في زواجنا قبل ثلاثين عاماً، وأنا أتمنى إجراء العملية في أقرب وقت، لأن المفصل يتآكل، والألم يزداد".

وفور خروجنا من الشقة ووصولنا إلى الشارع قال أحد الزميلين:

. بصراحة، هذا الرجل لا يستحق المساعدة.

ويسارع زميلي الثاني إلى القول:

. هذه ليست شقة، هذا قصر، سجاد ولوحات وزهر وكناري وقهوة فاخرة وغرور وتكبر، بل يعترف بأنه يستطيع دفع مئة وخمسين ألف ليرة، ما رأيت مثل هذه الوقاحة من قبل.

أبتسم، وأقول:

ـ لا نستطيع الآن اتخاذ القرار، في مقر الجمعية سوف نتحاور بهدوء.

وفور وصولنا إلى مقر الجمعية، أقول:

ـ تصريح الرجل بقدرته على دفع مئة وخمسين ألف ليرة ليس وقاحة، إنما هو صدق، والمبلغ كما سمعتم هو ثمن سوار ذهبي باعته زوجته، وكان قد أهداها إياه قبل ثلاثين سنة، هو هدية الزواج.

ويتكلم زميلي:

ـ أستاذ، أنا رأيت السجاد واللوحات والفناجين.

أتكلم بهدوء:

ـ السجادة أمام الباب قطعة من سجادة مهترئة، حتى السجاد في الممر قطع من سجاجيد قديمة عتيقة بالية، وهي من ألوان وأنواع مختلفة، وقطعتا السجاد في غرفة الضيوف مقصوصتان من سجادتين قديمتين مختلفتين، حتى اللوحات متنوعة ومختلفة، بعضها لونه باهت لوَّحَتْه الشمس، وبعضها الآخر أكلته العفونة، وإذا لا حظتم أطر اللوحات، كلها مختلفة الأشكال والأنواع، وأكثرها مكسور، ولكن ألصق بعضها ببعض، حتى الساعة، ميناء الساعة غير إطارها، وعقرباها مختلفان، كل عقرب يرجع في الأصل إلى ساعة من نوع.

يقاطعني أحد الزميلين متسائلاً:

. وصينية القهوة والفناجين؟

ـ الصينية في الأصل محطَّمة، وتتألف من خمس قطع، أعيد لصق بعضها ببعض، وإطارها مختلف، ليس من جنس الصينية، والفناجين الأربعة متشابهة، ولكن كل فنجان فيه شِعْر، ولكنه غير مكسور، وأحدها، وكان فنجاني، عروته ليست عروة الفنجان الأصلية، هي عروة ملصوقة به من فنجان آخر، وقبل أن تسألوني عن الثلاجة والمجمِّدة والغسالة، أقول لكم، كلها ترجع إلى عهد جدي، لعله اشتراها بثمن زهيد، أو ربما تخلى له عنه أحد الأغنياء في هذا الحي، تعرفون أنتم: كثير من الناس يشترون قطع أثاث جديدة ويتخلون عن القديمة، والمقعد حيث جلست أنا مزعزع، ويكاد يهبط بي إلى الأرض، أما أصص الزرع فبعضها من سطول بلاستيكية عتيقة أطرافها محطمة أو من علب الحليب والسمن المعدنية المرمية، حتى قفص الكناري، قضبانه مكسورة، وقد دُعِّمَتْ بأسلاك معدنية.

ويضيف أحد الزميلين:

. ولماذا القهوة الفاخرة؟

ـ هذه كرمى لنا، لضيافتنا، ومن الممكن شراء كمية قليلة بمبلغ بسيط.

ويضيف الزميل الآخر:

ـ ولكن الرجل يملك شقة في حي من الأحياء الراقية، وهو فوق مستوى عمله.

. نعم، هذا صحيح، ولكن نسيتم أنَّا نزلنا إليها عشرين درجة، وكان هناك شقة في دور نسميه المعلق، ثم نزلنا عشرين درجة أخرى، حتى بلغنا شقته، وأي شقة هذه؟ هي في الأصل ملجأ، أو مستودع، كان الله في عونه، نعم، فيها ثلاث غرف، ولكنها لا تعدل في مساحتها مجتمعة في الحقيقة مساحة غرفة واحدة، هي علب كبريت، لا غرف، والغرفة التي قعدنا فيها مغلقة، ليس فيها نافذة، والعمارات من حول الشقة تسد عليها الهواء والنور من الجهات كلها، هي بئر، وليست شقة.

. ومواد التنظيف والدرج المتألق؟

ـ لم تلاحظوا في المطبخ وجود علب التنظيف البلاستيكية التي ليس فيها إلا بقايا قليلة من مواد التنظيف؟

ويسألني أحد الزميلين:

. وما معنى هذا كله؟

ـ أولاً: الرجل صادق، وعزيز النفس، وكريم، ويحب النظافة، ويحب التأنق والعناية بالمنزل، وهذا من حقه، وثانياً: كل ما رأيتموه من علب التنظيف ملتقط من القمامة، والرجل يستفيد من بقايا مواد التنظيف التي فيها، وأكثر ما في الشقة ملتقط على الأغلب من القمامة، هي أشياء ينتقيها الرجل بعناية، ثم يهذبها ويرتبها، قطع السجاد، وأصص الزرع، واللوحات، والساعة، حتى المكتبة بما فيها من كتب، أكثرها أطرافه محروقة، أو أغلفتها ممزقة، حتى العصا التي يتوكأ عليها، مقبضها من عصا، ونصفها الأعلى من عصا ثانية مختلفة عن نصفها

السفلي، ولكنه أحاطها بسوار من معدن فضي اللون، ولكنه ليس من الفضة، أظنكم قرأتم في الطلب المهنة التي كان يعمل فيها الرجل، وهي التي سببت له من غير شك تآكل المفصل.

يتكلم زميلاي معاً:

. قرأنا، ولكن لا نصدق.

. بل صدقوا، الرجل كان عامل تنظيفات.

المرضعة

انتظرت حتى تحرك القطار، كعادتها في كل أسبوع، ثم صعدت في العربة الأخيرة، وأخذت تعبُر من عربة إلى عربة، بين المقاعد، حتى وصلت إلى العربة الأولى، عربة الدرجة الأولى، وفيها حجرات، وسرعان ما استقبلها دليل العربة مرحبا:

. أهلاً دكتورة هناء، حجرتك رقم أربعة، لكن اعذريني، اليوم ازدحام شديد، في حجرتك سيدة ومعها ثلاثة أولاد، بل لنقل أربعة.

شعرت بالإحباط، دخلت إلى الحجرة، وسرعان ما رحبت بها سيدة في الثلاثين، في عمرها تقريباً، في حضنها وليد صغير، لايزيد عمره عن بضعة أشهر.

وسرعان ما طلبت الأم من أولادها الثلاثة أن يقعدوا إلى جوارها ليخلوا المقعد العريض المقابل لمقعدها.

سُرّت الدكتورة هناء لهذه الحركة من السيدة، وزال عنها بعض استيائها من ازدحام الحجرة.

وما لبثت أن استقرت في وسط المقعد، وطلبت من طفل في نحو السادسة أن يقعد إلى جوارها قرب النافذة، وهي تقول له:

. تعال حبيبي، اقعد هنا إلى جوار النافذة.

الأم موفورة الصحة، وجهها مدور، لوحته الشمس، صدرها ممتلئ.

التفتت الدكتورة هناء إلى الأم لتقول لها:

. أعرف الأولاد يحبون القعود إلى جوار النافذة.

وسرعان ما يهبط طفل في الرابعة من عمره عن مقعده إلى جوار الأم ليمضي إلى جوار أخيه، الأم تحاول منعه، وهي تقول له:

. تعال إلى جانبي، لا تضايق الآنسة.

تحمله الدكتورة، وتضعه إلى جوار النافذة قرب أخيه.

الطفل الثالث وهو في الثانية من عمره يفرح لخلو المقعد فيقترب من النافذة.

الأم تشد الوليد إلى صدرها.

الدكتورة تتكلم:

. أنا مللت من الطريق، كل أسبوع أمامي هذه السفرة، أربع ساعات في الذهاب وأربع ساعات في الإياب.

تسألها الأم بأدب:

. عملك؟

. أنا دكتورة، طبيبة أطفال، من دمشق، وأعمل في مشفى حكومي تابع لوزارة الصحة، وجاء تعييني في مدينة حماة، كل أسبوع أمامي هذه السفرة.

. ألا يمكن نقلك إلى دمشق؟

ترسل الدكتورة زفرة، ثم تتكلم:

. يمكن، لكن بعد خدمة خمس سنين، إلا إذا جاءني زوج موظف مقيم في دمشق.

وتصمت ثم تضيف:

. وأين الأزواج في هذه الأيام؟

الأم تعلق:

. طبعاً لن تقبلي بأي زوج، لا بد أن يكون مثلك.

الدكتورة تعلق:

. والله صرت أقبل لو كان ....ماذا أقول لك....خليها على الله.

ويعم صمت هادئ، وتسألها:

. ولماذا لا تستأجرين شقة أو غرفة في حماة لتنامي فيها بدلاً من مشقة السفر.

ـ في المستشفى مبنى ملحق خاص بسكن الطبيبات، ولي غرفة أنام فيها، ولكن لا بد من زيارة الأهل في العطلة.

تتكلم الأم:

ـ احمدي ربك، أنت بألف خير، أنا فرحت على الزوج، تركت الجامعة من السنة الثانية، كنت في كلية الحقوق، وجاء الزوج، وتزوجنا، ومثلما ترين بعينك، ست سنين، بأربعة أولاد.

. زوجك من حماة؟

. لأ من قرية قرب حمص.

. أين كنت؟

. أهلي في الغوطة، بالشام، كنت في زيارة، والآن راجعة إلى بيت زوجي.

. كنت حردانة عند أهلك؟

تصمت، تمسح دمعة، تتكلم:

. حرد، وولادة.

. لكن

ـ نعم، الحياة الزوجية لا تخلو، والآن وجدت أن بيت زوجي هو بيتي.

. ورجعت هكذا وحدك؟

ـ ماذا سأفعل؟ لا يمكن أن يأتي ويأخذني، وأخشى أن يتزوج في غيابي، لذلك قلت في نفسي: ارجعي إلى بيتك، ولذلك، احمدي ربك، أنت بعيدة عن المشاكل ووجع الرأس.

. لكن

. أعرف، كل واحدة فينا تظن أن

ويبكي الوليد، تفتح القميص عن صدرها، تخرج ثدياً ممتلئاً، ترفع عن الحلمة قطعة قماش مشبعة بالحليب، ترميها في سلة تحت المقعد، ينفر الحليب من الحلمة الحمراء الكبيرة، تلقم الوليد الحلمة، يغص الوليد بالحليب، ترفع رأسه قليلاً، ثم يأخذ الحلمة، تكاد الهالة السمراء المحيطة بالحلمة تغيب بين شفتيه، وهو يمص بنهم، يده الناعمة الصغيرة تمسك بالثدي المحتقن، والأم تمسك ثديها بالسبابة والإبهام.

الدكتورة تسأل:

. ما اسمه؟

ـ مهند، وهذا الصغير بجواري محمد، والكبير بجوارك محمود، والأوسط بجواره أحمد، وأنا فاطمة.

ـ وأنا سناء، أسماء حلوة، ليحفظهم الله، لا شك والدهم هو الذي اختار الأسماء.

ـ نعم، الجد اسمه محمود، ولا بد من تسمية الولد الأول على اسم جده.

الأم ترفع الحلمة من فم الوليد، وهي تقول:

ـ تعال، لا بد من رضاعة الثدي الثاني، جدتك تقول: هذا لبن وهذا عسل.

الدكتورة تعلق:

ـ ماشاء الله حليبك وافر.

ـ هذا رزق من الله، ومن خيرات جده، والدي، عندنا في الغوطة ثلاث بقرات، وكل يوم أشرب ليترين من الحليب الطازج من ضرع البقرة مباشرة، من غير غلي ولا تسخين.

الولد الكبير إلى جوار الدكتورة ينزل من المقعد، وهو يرفع قدماً ويضع أخرى، ويصيح:

ـ أمي، أمي، أريد التبول.

الدكتورة تنهض، تمسك بيده، وهي تقول له:

ـ تعال حبيبي، أنا سآخذك إلى الحمام

الولد يقف يتردد.

الأم تقول لها:

ـ أرجوك لا تتعبي نفسك، لا تصدقيه، أعرفه، يريد الخروج للعب في الممر.

الولد يرفع قدماً ويضع أخرى، ويصيح:

. أمي، أمي

الأم تقول له:

. اذهب مع خالة الدكتورة.

الدكتورة تمسك بيده، وتقول له:

. لا تخف، نعم، أنا دكتورة، ولكن ما معي إبرة.

وتلتفت إلى الأم وتقول لها:

. والله كل يوم يأتيني في العيادة عشرة أطفال أو أكثر، لم أحب أي ولد منهم، وقلبي مل من الأولاد، ولكن أولادك كلهم أحببتهم، قلبي رقص لأجلهم، لا أعرف السر.

ثم تمسك بيد محمود وتمضي به.

ولكن سرعان ما ترجع وهي تقول للأم:

. خجل مني، رفض دخول الحمام معي، أصر على الدخول وحده، وأنا ما سمحت له، الحمام ضيق، والقطار يهتز، خفت عليه من الوقوع في الحمام.

وتصمت ثم تعلق، وهي تضحك:

. الملعون، عنيد، كنت أشتهي الدخول معه، ورؤيته وهو يتبول.

الأم تعلق:

. أنا والله كنت مثلك وأكثر، ولكن روحي ملت، وزهقت، أنصحك، لا تشتهي، الأولاد أكبر مشكلة في هذه الحياة.

الدكتورة تعلق:

. لكن عدم وجودهم مشكلة أكبر، اسأليني أنا.

الأم تضيف:

. الله يرزقك عشرة.

. أزواج؟

الأم تضحك، وتعلق:

. لأ، عشرة أولاد.

وتصمت ثم تضيف:

. صدقيني إذا قلت لك، أنا أتمنى لو رزقت بولد من غير رجل ولا زواج، مثل السيدة مريم، حتى من غير ولادة ولا حبل، والله لو كنت أعرف هكذا الزواج لكنت تبنيت ولد وما تزوجت، وانتهى الأمر.

الدكتورة تضحك، وتعلق:

. وكيف أنت الآن رايحة إلى زوجك؟ قولي لي؟ اصدقي معي؟

. والله أنا رايحة من أجل الأولاد، ومن أجل كلام الناس، طبعاً نحن نعيش في مجتمع.

ـ آه، هذه الحكاية، لا مفر، هاتي هذا الولد، مهند، وخذي ابنك إلى الحمام.

الأم ترفع الثدي من فم الوليد، تدخله في فتحة القميص، تزر أزرارها كيفما اتفق، الوليد يأخذ في البكاء، ترفعه إلى كتفها، تدق بيدها على ظهره، تمسك بيد الكبير محمود، تهم بالمضي به، يلحق بها الولدان الآخران، تلح عليهم بالبقاء، ولكن كل منهما يعبر بطريقته عن رغبته في التبول.

الأم تناولها الوليد، وتمضي بأولادها الثلاثة.

الدكتورة تضم الوليد إلى صدرها، وترجع إلى مقعدها.

تتأمله، حبة دراق ناعمة، خد كالورد، جلد رقيق كالموسيقا، عينان بصفاء السماء، زرقة أجمل من البحر، تشم رأسه، تود لو تأكل شعره الأشقر الناعم، تتأمل فمه، تشم فيه رائحة الحليب، العسل واللبن، تقبله في فمه، شيء ما يتحرك في جسمها، من غير تردد ولا خجل وبعفوية وسرعة تفك أزرار قميصها، تخرج ثدياً صغيراً، تضع في فمه حلمة ناعمة، يأخذها بين شفتيه، يأخذ في المص، تشعر بنشوة، الحليب يجري في عروقها، من قدمها إلى أخمص رأسها، شعر رأسها يقب، أصابعها ترتجف، تغمض عينيها مستسلمة لخدر لذيذ.

القطار يقف فجأة، لا تعرف ماذا جرى، الركاب ينزلون من الأبواب والنوافذ ويجرون في الفلاة، كأنهم يهربون من القطار قبل أن ينفجر، تحمل الوليد، تضمه إلى صدرها، تجري به، نهداها بارزان، لا تبالي بأنظار الرجال، تتعثر، تنهض، وهي تشد الوليد إلى صدرها، تلصقه بجسمها، وتلتصق به، وقد أصبح جزءاً منها، تركض، تقفز،

تطير به، تحلق، المرأة تلحق بها، تصيح وليدي وليدي مهند، يبرز أمامها رجل، تعرف على الفور أنه زوج المرأة، فاطمة، يقول لها: مبارك عليك الولد، لا أريده، خذيه، أنت أولى به من أمه، خذيه هو لك، هنيئاً لك الولد، حبل بلا دنس، ولد بلا زوج ولا حمل ولا عذاب، خذيه هو لك، تبكي، تبكي، الدموع تنهمر من عينيها، الحليب ينهمر من ثديها.

يفتح باب الحجرة وتدخل الأم، يتقدمها الأولاد، تدهش، تسألها:

. حبيبتي، ما هذه الدموع؟

تمسح عينيها وهي تقول مبتسمة:

ـ الحليب، الحليب تدفق من صدري أرضعته، رضع، صدقيني، رضع.

فيلم....بعد الغداء

يجلسان أمام شاشة التلفاز يحتسيان الشاي، بعد تناولهما الغداء، ويتابعان فيلم "قبل الغروب".

الزوجة تعلق:

ـ فيلم عاطفي جميل، والمناظر جميلة ومسلية، ولكن البطلة لا تكاد تتكلم، هي والبطل يسيران في شوارع باريس متسكعين.

الزوج يعلق:

. هذه جولي دلبي، والبطل هو إيثان هوك، الفيلم قرأت عنه، كانا مثَّلا معاً من قبل فيلم "قبل الشروق"، ثم التقيا مرة ثانية بعد تسع سنوات ليمثلا معاً فيلم "قبل الغروب".

الزوجة تضيف:

ـ ولكن الجو هادئ، ولا تحس بحرارة العشاق، فالبطل والبطلة لا يفعلان أي شيء سوى التسكع.

ـ صدقت، في الجزء الأول التقيا مصادفة في القطار الذاهب من بودابست إلى فيينا، وفي فيينا أمضيا ليلة حب، وتواعدا على اللقاء بعد ستة أشهر، لكن لم يلتقيا، والآن في هذا الفيلم التقيا في باريس مصادفة، بعد تسع سنوات، بينما كان إيثان هوك في المكتبة في حفل التوقيع على

روايته الجديدة، وهو كاتب روائي أمريكي، واسمه في الفيلم جيسي، وفي الرواية يتحدث عن لقائه بجولي، واسمها في الفيلم سيلين، وهي فرنسية، يرفع رأسه ليرى جولي، أو بالأحرى سيلين، فيترك المكتبة، ويمضيان معاً ليتسكعا في شوارع باريس، وليس أمام إيثان سوى قليل من الوقت، لأن طائرته ستقلع بعد ساعة ليعود إلى أمريكا، وهاهما كما ترين، يتجولان في شوارع باريس، وكل منهما يكتفي يستمتع بوجود الآخر إلى جانبه، واكتشافهما معاً العالم، الصمت في كثير من الأحيان أكثر تعبيراً من الكلام.

الزوجة تضيف:

. جولي ليست جميلة، عيناها صغيرتان.

. لا، عيناها حلوتان، وهي حلوة، لاحظي حركتها، ما أرشقها! هي تتصرف بعفوية، تضحك ببراءة، تشبه كثيراً ابنة جيراننا ملك.

. أي جيران؟

. أوه، وأنا طفل، في العاشرة، كان عندي ابنة جيران أحبها اسمها ملك، كنا نلعب معاً، كأنها جولي، كيف أصفها لك؟

. لا، لا تصفها، وتتعب نفسك، هذه هي ملك أمامك، اعتبر ملك هاجرت إلى فرنسا وغيرت اسمها وأصبحت ممثلة، ما أدراك؟ ربما كانت هي نفسها.

. أرجوك، لا تسخري مني.

. لا، أنا لا أسخر، كل شيء في هذه الدنيا ممكن.

. صدقت، الحقيقة، اليوم جاءتنا موظفة جديدة، اسمها غُنْوة، فور دخولها قلت: هي جولي بذاتها.

. لماذا جولي؟ قل ملك، جولي لن تعمل مثلك في مديرية الزراعة، ربما هي ملك.

. لا، ملك تزوجت ولم تتابع دراستها.

ويصمت، ثم يضيف:

ـ انظري إلى جولي كيف تتكلم، وتضحك، وتمشي، غنوة مثلها تماماً، كأنها تقلد جولي، مرحة، تضحك، وتسير برشاقة، وتسلم على الموظفين، كأنها تعمل معنا منذ عشر سنين، مع أنها في اليوم الأول لعملها.

ـ ولذلك اشتريت فيلم "قبل الغروب" ودعوتني لمشاهدته، أو مشاهدة جولي.

. من سوء الحظ ماعند البائع الجزء الأول، معك حق، الجزء الأول أكثر حرارة.

. رأيت الفيلم من قبل؟

. نعم، رأيته.

. قبل زواجنا.

ـ نعم هذا الجزء أنتج عام ٢٠٠٤، والجزء الأول أنتج قبل تسع سنوات، كما قلت لك.

. ولماذا تصر على رؤيته اليوم.

. لتشاركيني متعة رؤيته.

. قل لترى الموظفة الجديدة غنوة، لا يكفي أنها معك في المديرية، تريدها معك في المنزل.

. لا، لا، أبداً.

. وهل هي موظفة بالتعاقد أم موظفة دائمة.

ـ دائمة، انظري إلى جولي وطريقتها في الحديث، تتكلم بعفوية، كذلك كانت ملك، واليوم غنوة، كأنها هي.

الزوجة تضع كأس الشاي وتنهض.

يسألها:

. شربت الشاي بسرعة، هل أصب لك الكأس الثانية؟ لا تنهضي، دعينا نتابع الفيلم.

. إذا كنت سأتابع الفليلم معك فسأحتاج إلى عشر كؤوس شاي.

. اشربيها على مهل، حتى نستمتع.

. فيلم ممل، ما دمت تعرفه، قل لي ما هي النهاية؟

. في النهاية تدعوه إلى شقتها الصغيرة، وتغني له.

. وطائرته التي ستقلع بعد ساعة.

. ما عدت أتذكر، أظن ....تعالي لنتابع الفيلم.

تهم بالمضي إلى المطبخ، لكنها تقف وترجع لتقول:

. نسيت أن أقول لك

. تفضلي

. كنت أتمنى لو قام معها بدور البطولة أنتوني كوين، يا إلهي، كم أحب أنتوني كوين، هذا الممثل الشاب الضعيف النحيل الهادئ...ماذا قلت لي اسمه؟

. اسمه إيثان هوك.

ـ لا يليق به الاسم، هادئ، وبارد، ولا يضمها إلى صدره، ولا يقبِّلها، لو مثَّل معها أنتوني كوين لكان احتضنها وطار بها إلى سطح كنيسة نوتردام، واعتصرها هناك بين يديه.

ـ عرفت، أنت قصدت فيلم أحدب نوتردام، لكن هذه ليست إزميرالدا، حتى أنتوني كوين هناك لم يقبل إزميرالدا.

تقاطعه:

. أعرف، أنا لا أتحدث عن أحدب نوتردام، أنا أتحدث عن أنتوني كوين، البطل الذي أمضى ليلتين في البحر وحده واصطاد سمكة السيف وقاوم أسماك القرش، في فيلم "الشيخ والبحر"، صدر عريض، وذراعان قويتان، ورأس كبير، ووجه مفعم بالقوة والحياة، مع أنه شيخ عجوز.

ـ أنت نسيت الفرق الكبير في الأعمار، أنتوني كوين من مواليد عام ١٩١٥، كيف سيمثل مع جولي الفيلم عام ٢٠٠٤ وهو الذي توفي عام ٢٠٠١، حتى الجزء الأول الذي صور عام ١٩٩٥ كيف كان سيمثله معها وعمره ٨٠ سنة.

الزوجة تنهض بعصبية، تعلق:

ـ لم تزدني معرفة لا بجولي ولا أنتوني كوين، أعرف هذا كله، ولكن أنا كنت أتمنى لو مثل أنتوني كوين مع جولي هذا الدور.

. لا يمكن يا حبيبتي، لا يمكن، هذه هي طبيعة الفيلم، هي قصة حب هادئ، فيلم رومنسي رقيق شفاف، والبطلة ناعمة، والبطل...

تقاطعه وهي تهم بالمضي نحو المطبخ:

ـ مرة ثانية، أقول لك: أنا كنت أتمنى، هل أكرر، أتمنى، هي مجرد أمنية، لا أكثر، والأمر كله كلام وخيال، هل الفيلم حقيقة واقعية؟

. عرفت، أنت تحبين أنتوني كوين لأنه يمثل إليك شخصية الأب، وبما أن والدك يرحمه الله توفي وأنت طفلة، فأنت ما زالت تحملين في ذهنك صورة الأب الذي يمثل معاني الرجولة، لكن جولي تختلف، ترى الرجولة في هذا الشاب اللطيف الناعم.

الزوجة ترد:

ـ أوه، تذكرت، الحقيقة أحب انتوني كوين ربما لأنني متعلقة بوالدي، يرحمه الله، لا أنكر، كما قلت، وهذا طبيعي، لكن سأقول لك، أحب أنتوني كوين، لأن لدينا في مديرية الصحة موظفاً يشبهه، عريض الكتفين، شعر ذقنه خشن، يداه قويتان، وجهه يحمل تعب الأيام.

الزوج ينهض، يضع كأس الشاي، يوقف عرض الفيلم:

. من هو؟ وما اسمه؟ وماذا يعمل؟ وهل هو معك في نفس الغرفة؟ ولماذا لم تحدثيني عنه من قبل؟

. ما جاءت الفرصة المناسبة.

. وكم عمره؟

. في عمر جدي.

. وما يزال في المديرية؟ وماذا يعمل؟

تضحك، تقهقه:

. تقاعد من خمس سنين.

توليه ظهرها، وتهم بالمضي إلى المطبخ، وهي تتكلم:

. ولكن ما يزال يزور المديرية بين حين وآخر.

يلحق بها، يمسك بها من ذراعها، يشدها إليه، يسألها:

. ولماذا يزور المديرية؟

تلفت إليه وتبتسم:

. ليطمئن على زميلاته الموظفات.

. هكذا ببراءة وبساطة؟ وكيف يسمح له المدير؟

ـ بصراحة، هو يبيعنا جوارب نسائية، وأشياء أخرى، وخاصة الألبسة الداخلية، كل شهر يزورنا، في أول الشهر، مع قبض الراتب، ماذا تتوقع أن يبيعنا؟ هل سيبيعنا بقايا من الهيكل العظمي المتبقي من سمكة السيف التي اصطاها أنتوني كوين؟

الزوج يضع يده على كتف زوجته، يتكلم:

. سامحيني حبيبتي، والله ما كنت أريد إزعاجك، ولكن كنت عفوياً وبريئاً ولا أقصد أي شيء.

الزوجة تنفلت منه برشاقة، تتجه إلى مقعدها أمام شاشة التلفاز، وتتكلم بهدوء:

. وأنا كنت عفوية وبريئة ولا أقصد أي شيء، ولكنك كنت صادقاً وجاداً، هناك حقيقة ملك، وحقيقة هناك غنوة الموظفة الجديدة، وجولي في الفيلم.

. نعم.

. لكن أنا ما كان عندي غير أنتوني كوين في الفيلم، وأنت نفسك قلت: أنتوني كوين توفي عام ٢٠٠١، أما جولي فما تزال شابة، مد الله في عمرها، ومتعك بأفلامها، أما الموظف العجوز الذي يشبه أنتوني كوين فهو من خيالي، سامحني حبيبي.

. سنتابع الفيلم، إذن.

يهم بالقعود إلى جوارها، فتشير بيدها إلى المطبخ وتتكلم:

ـ لا، أرجوك، لا تقعد إلى جواري، حبيبي، هناك في المطبخ الصحون الفارغة تنتظر من يغسلها، أنا متعبة وأعصابي تلفت، أنت تعرف الفيلم، ولا ضرورة لتراه مرة ثانية، وعندك في المديرية، سترى كل يوم جولي أمامك، دعني أنا أتابع الفيلم وحدي.

وتبدأ بتشغيل الفيلم، وزوجها ما يزال يقف مدهوشاً، وهي تتكلم:

ـ حقيقة، جولي رقيقة، وإيثان هوك، أوه يا إلهي، كم هو شاب لطيف وحالم، كنت مخطئة في الحكم عليه، هاهو في شقة جولي، سوف أستمتع وحدي برؤية نهاية الفيلم.

سيارات السيرفيس

رأس كبير مدور مثل كرة السلة، غائر بين كتفين عريضتين، الرقبة غليظة ولا تكاد تظهر، الكتف اليسرى مائلة، والصدر عريض، تمتد تحته بطن ممتلئة، لا أعرف كيف يمكن أن يستقر بها وراء المقود، بيده اليسرى صندويشة فلافل يقضمها قضماً، بلقم كبيرة، ولا تكاد تنزل عن فمه، ولا أعرف كيف يبتلع اللقم الكبيرة بهذه السرعة، فمه ممتلئ وهو ينادي:

. راكب واحد، راكب واحد، إلى الميدان، إلى الميدان.

بقايا الطعام تتناثر على ذقنه التي لم يحلقها ربما منذ أكثر من أسبوع، يفرغ من تناول الصندويشة، يمسح فمه وذقنه بيده، ثم يمسح يده بباب السيارة، وهو ينادي:

. إلى الميدان، غلى الميدان.

عيناه الصغيرتان المدورتان تبحثان عن الركاب، كأنه يخترق جدران البيوت ليرى الراكب قبل خروجه من بيته، يكاد يجر أحد المشاة على الرصيف وهو يقول له:

. تفضل إلى الميدان، تفضل.

راكب عجوز نحيل يتقدم من باب السيارة، فيهتف به:

. إلى الداخل، المقعد في الصدر فارغ.

الراكب العجوز يعلق:

. لكن سأنزل بعد قليل.

السائق يصيح به:

. إلى الداخل، قلت لك إلى الداخل، لا تزعجني، الله يرضى عليك، أنت بمقام والدي، روحي وصلت إلى مناخيري.

أنا في المقعد الأمامي، إلى جوار النافذة، إلى جواري شاب نحيل مثلي، وإلى جواره سيقعد السائق، ما أزال أسأل نفسي: كيف سيقعد وراء المقود، وبطنه المكوَّرة تمتد أمامه مثل بطن حامل بتوأمين، ويرتدي فوق هذا سترة جلدية سميكة.

ألتفت إلى الخلف فأرى المقاعد الثلاثة قد امتلأت، في كل مقعد ثلاثة ركاب، لكن إلى جوار كل مقعد تمَّ وضْعُ مقعد صغير إضافي، يمكن طيه وفتحه، لا بد من انتظار ثلاثة ركاب آخرين.

امرأة بدينة تتقدم من السيارة، يقول لها السائق:

. اقعدي هنا في المقعد الجانبي، عند الباب، ليسهل عليك النزول.

ترد:

. لا أرتاح هنا، وأخاف من الوقوع.

يضحك، يقهقه، ترتج بطنه كأنها بالون مملوء بالماء:

. لا تخافي على روحك، اقعدي، هنا أسهل عليك.

توليه ظهرها وتمضي، وهي تقول:

. لن أركب معك، هناك سيارات سيرفيس كثيرة.

يقهقه يعلق بصوت عال:

. الله معك، المرأة كلها شر، وأنا لا أريد للمرأة ركوب سيارتي، الله يحمينا من شرك وشرك أمثالك، جنس حواء، كله واحد، عناد وشر وغرور.

الراكب إلى جواري يقول لي:

. أنا كنت قبل شهر في باريس، عدا المترو، هناك حافلات، ماذا أحكي لك

السائق يقترب من النافذة، ويتكلم:

. احكي له عن باريس، احك للناس كلها، نحن هذه هي حياتنا، لن تجد أجمل من حياتنا، نحن أصحاب نخوة وشرف ودين وأخلاق، لكن الناس هناك في أوربة ما عندهم أي شيء من هذا كله، نعم، مثلما حكوا لنا، عندهم سيارات ومترو مثل ما قلت، ونحن صار عندنا سيارات، هذه سيارة أنت راكب فيها.

يصمت، يحس بالغيظ، تنتفخ عروق رقبته، يقترب من النافذة أكثر، حيث أنا، تنفحني رائحة أنفاسه المشبعة بدخان سكائر رخيصة، ليقول للشاب بجواري، وكأنه يستفزه لمعركة:

ـ على كل حال، هذه السيارة على مستوى ركابها، والذي مستواه أعلى يركب سيارة أجرة، فهمت عمي؟

الشاب بجواري يصمت.

ثلاثة ركاب يتقدمون من السيارة، يهتف بهم:

. بسرعة، اقعدوا في هذه الكراسي.

ويغلق الباب ثم ينعطف أمام السيارة ليأخذ موضعه وراء المقود.

فور دخوله إلى السيارة إلى جوار الراكب الذي بجانبي تنفحني روائح تبغ رخيص وزيت وشحم ينبعث من يديه السوداوين، روائح غليظة خانقة.

ويهدر المحرك، وتنطلق السيارة في اندفاعة مباغتة تخض الأجسام خضاً.

ويلتفت ليهتف بالركاب:

. اجمعوا لي الأجرة.

أناوله أنا أجرتي، ويناوله أيضاً الراكب الذي بجواري أجرته.

أسمع أصوات الركاب وهم يتجادلون، خذ مئة، واقطع أجرة راكب، صوت آخر يهتف: أعطيتك مئتين، ولم ترد لي البقية، وأخيراً يهدأ اللغط، ويناول أحدهم السائق المبلغ، يمسكه بيده، يغلق عليه أصابعه الملوثة بالشحم والزيت، ويترك المقود لتنساب السيارة وحدها، ويأخذ في عد الأجرة.

وسرعان ما يلتفت، ليصيح:

. هناك راكب واحد ما دفع أجرته.

يسود هدوء، لا أحد يرد، السائق ينظر في المرآة التي فوق رأسه، ثم يتكلم:

. هناك راكب رابع في صدر السيارة، لم يدفع.

وينعطف بسرعة، ليتجنب سيارة قادمة، فتميل بنا السيارة ميلاً شديداً.

أحد الركاب يرد:

أخي كل الركاب دفعوا، والمبلغ كامل.

السائق يرد:

. والله لن أسمح لأحد بالنزول بعد أخذ أجرة الراكب الرابع.

ويبرز من بين السيارات المركونة إلى جانب الرصيف رجل عجوز يشير بعصاه، فيلتفت إلينا السائق ليقول:

ـ رجل عجوز، مسكين، سأحمله إلى جانبكم، أنتم كل واحد منكم نحيل، يمكن أن تضعوه إلى جواركم، لا يجوز تركه هكذا في الشارع، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه.

ويقف بالسيارة أمام العجوز، ويطلب مني فتح الباب:

. افتح له الباب من فضلك، أنت صاحب الكرم، اعتبره مثل جدك.

أفتح الباب وأنا متذمر، ماذا أفعل، ويتقدم العجوز من الباب، وبصوت ضعيف يقول للسائق:

ـ الله يرضى عليك يا بني وصلني إلى جامع الفتح، لك الثواب والأجر، ما معي أجرة.

يقول له السائق بصوت جاف خشن:

. اقعد في بيتك، ولا تصلّ، أنت سقطت عنك الصلاة، وأنا لا أمر في طريقي بجامع الفتح.

ثم يلتفت إليَّ ليقول:

. أغلق هذا الباب، أغلقه.

وينطلق بالسيارة حتى قبل أن أغلق الباب.

ويأتيه صوت امرأة من عمق السيارة:

. أخي، أنا سأنزل عند جامع الفتح.

ويلتفت ليصيح:

ـ أنا لا أمر بجامع ولا مدرسة ولا كنيسة ولا مستشفى ولا دير ولا جامعة.

ثم يعلق:

ـ وأنت حضرتك كيف ركبت معي؟ أنا ما انتبهت، أنا لا أحب ركوب السيدات معي في السيارة.

ويعلق أحد الركاب:

ـ ولكن خط سير السيرفيس يمر بجامع الفتح وكنيسة الأرمن ومدرسة المحبة، هذا هو نظام الخط.

ويرد السائق:

. أنا خطي مختلف، أنا أسير على مزاجي.

. أنت تخالف النظام.

يوقف السيارة فجأة، يلتفت ليصيح:

ـ نعم، أنا لا أحب النظام، أنا سأخالف القانون والنظام والدستور والأديان والشرائع كلها، سأخالف الدنيا كلها، هذه سيارتي، وأنا حر، والذي لا يعجبه يتفضل ينزل.

ويتكلم أحد الركاب:

ـ رد علينا الأجرة حتى ننزل.

ويتكلم شخص آخر:

ـ لن ننزل، ولكن تفضل، امش معنا إلى مخفر الشرطة.

السائق يستل قضيباً من معدن كان تحت مقعده، يفتح الباب، وينزل، يلتف أمام السيارة، ويمضي إلى الباب الجانبي، يفتحه، ويقف أمام الباب، وقد سده بكتلته الجسمية، ويصيح:

ـ من قال امش معنا إلى المخفر؟ من قال رد علينا الأجرة حتى ننزل؟

لا أحد يجيب.

يشهر القضيب وهو يصيح:

ـ لن أمر بجامع ولا مسجد ولا دير ولا كنيسة ولا مستشفى ولا مخفر، سأسير مباشرة إلى آخر الخط، ومن أقصر طريق، وسأقفل عليكم الباب.

يغلق الباب، يقفله.

ويعود إلى موضعه وراء المقود.

يقلع بالسيارة، وهو يصيح:

ـ والله إذا نطق أحدكم بكلمة فجرت السيارة، تحت كل كرسي إصبع ديناميت، وهنا فوق رأسي عند المرآة زر، إذا ضغطت عليه انفجرت السيارة وطارت كراسيكم كلها.

ويلتفت إلي وإلى الراكب بجواري ويقول:

. حتى أنت وهو.

ثم يدق على مقود السيارة ويقول:

ـ أما أنا، فبين ضغطي على الزر وبين انفجار السيارة نصف دقيقة، أكون فيها ابتعدت عن السيارة، ما رأيكم؟ هل أجرب؟

وينطلق بالسيارة.

الركاب صامتون.

ينظر في المرآة فوق رأسه ويصيح:

. أنا ما نسيت، هناك راكب رابع ما دفع.

لا أحد يرد.

ـ لا بأس، صاحبكم لن يدفع، كل واحد يدفع خمس ليرات زيادة بدلاً منه، وفوقها خمس ليرات ثانية، هذه ضريبة الطريق، لأن الطريق كلها حفر ومحرك السيارة تعب منها وتعبت العجلات، حتى خمس ليرات غير كافية، عشر ليرات ضريبة طريق، وإلا فجرت الكراسي كلها.

يتكلم أحدهم:

ـ يـا أخـي، أنـت سـيارتك تعبانـة، وفارطـة، ولا تصـلح للخدمـة، والمقاعد ضيقة ومكسرة، وفـي الطلعـة وفـي النزلـة نصـدم رأسـنا بسـقفها الواطئ، وفوق هذا ستأخذ منا خمس ليرات وعشر ليرات زيادة.

السائق يوقف سيارته، يلتفت:

. عرفت، أنت حضرتك فيلسوف، أنا قلت للشاب هنا بجواري قبل قليل: هذه السيارة فارطـة، نازلـة، قيمتهـا قرش، لكـن هـي علـى مستوى ركابها، وركابها على مستواها، إذا ما عجبتك السيارة اركب سيارة أجرة وحدك، أو هذه معارض السيارات أمامك، ادخل لتشتري سيارة خاصة.

يرد الرجل:

ـ لأ، هذا الكلام غير صحيح، من حق كل مواطن ركوب سيارة سيرفيس مريحـة ورخيصـة، ولا يمكن لكل مواطن شراء سيارة أو ركوب سيارة أجرة.

السائق، يقهقه، يضحك، ينطلق بسيارته، وهو يعلق:

. والله صدقت، هذا حقك، اذهب إلى الأمم المتحدة وطالب بحقك.

وفجأة ينعطف في شارع فرعي، يقف إلى جانب الرصيف، ينزل.

يفتح الباب على الركاب ويصيح:

ـ بسرعة انزلوا كلكم ساعدوني، ارفعوا السيارة معي حتى أبدل الدولاب، نزل الدولاب، ما عندي رافعة، كريكو.

يهبط الركاب، أضغط بإصبعي على الزر بجوار المرآة، وأهبط بسرعة، وأختفي في مدخل بناء، أرقب المشهد.

السائق يمضي إلى خلف السيارة، يفتح الباب، الخلفي، يخرج عجلة الاحتياط، يلتفت، يجد نفسه وحده، لا أحد من الركاب، كلهم تسللوا وهربوا واحداً إثر آخر وغابوا في مداخل العمارات أو في شوارع خلفية.

يضع عجلة الاحتياط إلى جانب العجلة الخلفية، يستل سيكارة من جيب سترته، من غير أن يخرج العلبة، يشعلها، ويقف، يدخن.

يقف، يتلفت حواليه، يضحك، يقهقه، يصيح بصوت عال:

ـ راحوا، راحوا كلهم، مع ألف سلامة، هناك ركاب غيرهم كثير، والله مثل هؤلاء الركاب لا تليق بهم إلا هذه السيارة، ولا يليق بهم إلا مثل هذا السائق، الذي هو أنا، ما في مشكلة، المهم أنا، لا الركاب، ومادامت السيارة موجودة فهذا يعني وجود ركاب، لكن من غير سيارة، لا يوجد ركاب، يوجد مشاة، كان الله في عونهم.

يعيد عجلة الاحتياط إلى موضعها في خلف السيارة، يشعل سيكارته، ينادي:

. إلى الميدان، إلى الميدان.

يتقاطر حوله عدد من الرجال والشباب والأطفال.

أخرج من مدخل البناء، أقترب منه، أسأله:

. لم تبدل الدولاب؟

ينظر إليَّ، يضحك، بسخرية، يقهقه، ثم يهمس:

ـ عرفتك، أنت كنت في السيارة بجانبي، بجوار النافذة، حسبتك أذكى منهم، ما نزل الدولاب، ضحكت عليهم كلهم حتى ينزلوا وأركب غيرهم.

. والراكب الرابع؟

يقهقه، يمسح بيده على بطنه، يتكلم:

ـ لا رابع ولا خامس، في كل جولة أخلق مشكلة حتى أتسلى، وحتى يجن الركاب ويهربوا، مِن نزل الدولاب، إلى تعطلت السيارة، إلى فرغ البنزين، أو خلص الزيت، إلى السيارة حميت وستنفجر، وكل يوم أشتغل على خط، من الميدان إلى المشروع، ومن المحطة إلى الساحة، ومن معمل الغاز إلى معمل الإسمنت، ومن شارع المتنبي إلى شارع البحتري.

ويرمي عقب سيكارته، ثم يسألني، وهو يقهقه وبطنه ترتج، وهو يمسح عليها بيده:

. أعجبك؟ أتسلى وأسترزق وأفعل كل ما يحلو لي.

. وأصابع الديناميت تحت المقاعد؟

. لأ، هذه حقيقة، ما هي مزحة ولا كذبة.

. لكن أنا ضغطت على الزر قبل نزولي، ولم تنفجر السيارة.

يرد:

. قلت لك ما هي مزحة، هي حقيقة، أنا علقت زر الأمان، وإذا ما صدقت، أستاذ، تفضل، جرب، اطلع معي مرة ثانية، ولن آخذ منك أجرة، وأنا مستعد لتفجيرها كرمى لك.

أسمع هدير سيارة سيرفيس قادمة، تقف وراء السيارة الأولى، ينزل منها الركاب، وجوههم تشبه ركاب السيارة التي كنت فيها، كأنهم هم أنفسهم، ينزل من جانب السائق شابان اثنان، أحدهم يشبه الشاب الذي كان إلى جواري، كأنه هو، الراكب الآخر يشبهني تماماً، كأنه أنا.

ينزل السائق يلف أمام السيارة، يصبح أمامي.

رأسه كبير مدور مثل كرة السلة، غائر بين كتفين عريضتين، الرقبة غليظة ولا تكاد تظهر، الكتف اليسرى مائلة، والصدر عريض، تمتد تحته بطن ممتلئة، لا أعرف كيف يمكن أن يستقر بها وراء المقود، يقف عند باب السيارة، ينادي:

. راكب واحد، راكب واحد، إلى الميدان، إلى الميدان.

يلتفت يراني، يهتف بي:

. تفضل أستاذ، تفضل.

السائق الأول يتقدم مني، يشعل سيكارته، يتكلم:

ـ ما عندنا أي مشكلة، وأنت ما عندك أي مشكلة، اركب معه أو اركب معي، هذا أخي التوءم، وسيارته توءم سيارتي، فيها زر مثل سيارتي، اركب معه، ما عندنا أي مشكلة.

أرى سيارة من بعيد تقترب.

أُولِي الساحة ظهري، وأمضي.
ما عدت أعرف أين أنا؟ وفي أي اتجاه أسير.
أسمع ورائي أصواتاً متداخلة تنادي:
. ساحة النجمة..... شارع الحمراء.....
. روكسي .....رمسيس.....العتبة.... جربة .....القصبة.

صباح ليلة عاصفة

حوالي الساعة العاشرة صباحاً حاولت إيقاظ زوجها، شم وهو بين اليقظ والنائم رائحة الصابون المعطر، فتح عينيه فرآها بثوب الحمام الوردي، شدها إليه، أدخلها إلى جانبه في الفراش، وأخذ يبترد بجسمها النديان، وهي تستدفئ بجسده الساخن.

بعد حوالي الساعة، نهضا، واستحما معاً.

أراد المضي معها إلى المطبخ ليساعدها في إعداد الفطور، فقالت له:

ـ لأ، حبيبي، أنت تابع الأخبار في التلفزيون، وبعد عشر دقائق تجد المائدة في الشرفة جاهزة.

وفي الشرفة أدهشته المائدة الممتدة تحت عريشة الياسمين، في وسطها مزهرية صغيرة، تحمل قرنفلتين، حمراء وبيضاء، وعلى حافة الشرفة يستدفئ الكناري الأصفر بشمس نيسان، وهو يقفز بين قضبان قفصه الذهبي، ويرسل تغريده.

سأل مدهوشاً:

ـ ما هذا؟ هل عندك جنية في المطبخ ساعدتك.

ردت:

ـ حتى الآن ما عرفت؟ الجنية أنا.

قعد لصقها، مال على أذنها، لثمها ثم همس، وهو يمسح بيده على فخذها:

ـ فعلاً، جنية في الليل وفي النهار، وجنية في المطبخ وفي الفراش.

همست ضاحكة:

. وأنت العفريت، ما تركت الجنية تهدأ ولا تنام طول الليل.

ومد يده إلى صحن العسل، فوضعت يدها على يده، تمنعه من تناول العسل، وقالت:

. لا، أرجوك اتركه، لست بحاجة إليه.

ثم ناولته صحن السلطة، وقالت:

. لا عسل بعد اليوم.

علق:

. أنت المسؤولة، ما تركت أي شيء في المطبخ إلا وضعته على المائدة، من العسل إلى البيض، ومن الحليب والجبن إلى الزيتون الأخضر والأسود.

ردت:

ـ وأنت ما تركت أي شيء في الليل إلا والتهمته، كأنك ابن عشرين، لا في الخمسين.

حك قدمها بقدمه أسفل الطاولة، وعلق:

. احمدي ربك، واشكريه، بالشكر تدوم النعم.

ردت:

. احتفظ بشيء للشيخوخة.

يضحك، يعلق:

. ومن يضمن عيشنا لبكرة؟

ثم شرب الشاي، وعريشة الياسمين تظللهما، والكناري الأصفر يرسل إليهما غناءه العذب، وهما ينعمان بشمس نيسان الدافئة.

علق مستمتعاً بالجلسة:

. جو نيسان متقلب، ليل شتوي بارد ماطر، ونهار صيفي دافئ.

. فعلاً، في الليل عواصف ورعود وأمطار وسيول، صوت المطر على النافذة جعلني أحس بالسيل يجري في الغرفة تحت السرير.

ضحك، وهو يرشف آخر قطرة من فنجانه، ثم علق:

. حقيقة جرى السيل تحت السرير.

تنهض، وهي تضحك، وتعلق:

. عليَّ إذن مسح الغرفة وتهويتها.

ينهض ويضيف:

ـ وأنا عليَّ زيارة أمي لأخذ رضاها، ثم الذهاب إلى الجامع في الحي بقربها لأداء صلاة الجمعة.

وعند الباب يضمها إليه، يقبلها، ثم يخرج.

في موقف الحافلة لا يطول به الانتظار، ليس ثمة ازدحام، الناس في عطلة.

معظم المقاعد في الحافلة شاغرة، ليس ثمة غير بضعة ركاب، عيناه بشكل عفوي تستقران على صبية وحدها في الثلث الأخير من الحافلة، يتجه إليها، يقعد إلى جوارها في المقعد.

وتنطلق الحافلة، وسرعان ما يميل عليها، ويحك قدمها بقدمه، يحاول الالتصاق بها.

عيد ميلاد المدير

خرجت من المطبخ بثوبها البرتقالي الفضفاض العريض، وهي تجر قدميها في شحاطة بلاستيكية، مصدرة صوتاً رتيباً متوالياً، مثل نجار يشذب سطح خشب خشن، وهي تحمل صينية فيها إبريق الشاي، من غير غطاء، والبخار يتصاعد منه، وفنجانان، أحدهما عروته مكسورة، إلى جانبهما صحن بلاستيكي فيه سكر، وضعت الصينية على المنضدة، ثم ألقت بجسمها إلى جانب زوجها، القاعد قبالة التلفاز، وهي تقول:

. أوه، والله نسيت الملعقة، ومصفاة الشاي.

ووضعت يدها على فخذه، وهي تقول:

. حبيبي، والله أنا تعبانة، من فضلك، الملعقة ومصفاة الشاي، كل واحدة في مكانها، وإذا أحببت ابحث عن غطاء إبريق الشاي، أنا ما وجدته، وسامحني، أنا سأشرب الشاي في الفنجان المكسورة عروته، الفناجين كلها في الرف الثالث، ما وجدت أمامي غير هذين الفنجانين.

وتصمت، ثم تضيف:

. هل أنهض أنا لإحضار الملعقة والمصفاة؟

وينهض الزوج، يحضر فنجانين جديدين، وغطاء إبريق الشاي، والمصفاة، يغطي الإبريق، يضع السكر في الفنجانين، ويبدأ بصب الشاي.

تصيح فجأة:

ـ انتظر حبيبي، انتظر، حتى يختمر الشاي، اتركه عشر دقائق، يصبح أطيب.

ثم تنهض، وهي تقول:

. أوه تذكرت، عندي لك مفاجأة.

تمضي نحو حقيبتها المعلقة على المشجب، وهي تجر قدميها في شحاطتها مصدرة الصوت المكرور.

الزوج يعلق:

ـ حبيبتي، أكثر من مرة قلت لك، أرجوك، لا تجري قدميك على الأرض، أحس بصوت الشحاطة يخدش أذني.

تلتفت إليه وتقول:

. حقك علي، سأحاول، لكن صدقني، أنا أمشي على إيقاع السيغا.

يضحك، يعلق:

. أرجوك، لا سيغا ولا نهاوند، أتمنى مشيك حافية.

ترفع الحقيبة، بيد، وتشير إليها بيد أخرى، وهي تقول:

. أعجبتك الحقيبة؟

يعلق سائلاً:

. وهي أيضاً بمناسبة عيد ميلاد السيد المدير؟

ـ طبعاً، لا بد أن تتناسب الحقيبة مع الحذاء؟ انظر إلى اللون الأصفر الفاتح مع الفستقي.

وتشير إلى الحذاء المركون أسفل الجدار تحت الحقيبة، وهي تقول:

ـ كأن الحقيبة فصلت من أجل الحذاء، أو كأن الحذاء فصل من أجل الحقيبة، قل كأنهما من معمل واحد.

وتستل من الحقيبة قرصاً مدمجا، وهي تعلق:

ـ صدقني، لفتُّ أنا أنظار كل الزملاء والزميلات، كأن عيد الميلاد هو لي لا للسيد المدير، ومن شدة ذكائه، هل تعرف ماذا فعل؟ أنا سأقول لك، دعا السيدة الأولى، زوجته، لحضور حفل الميلاد، دهشت، لم تصدق أن زوجها السيد المدير يملك كل هذه الشعبية، كأنه ملك أو رئيس، وأنا متأكدة، أكثر ما غاظها هو هديتي لزوجها، طبعاً عدا الحذاء والحقيبة، الآن سترى في الفيلم، عيونها كانت معلقة على الحذاء والحقيبة.

وتدور القرص بأناملها، وهي تقول:

ـ سترى هنا الآن في هذا القرص كل شيء.

وتضع القرص في جهاز العرض، تقعد إلى جوار زوجها، وهي تقول:

ـ يمكنك الآن صب الشاي حبيبي، أظن الشاي اختمر، ضع لي في الكاس ملعقة سكر زيادة، أنا اليوم في قمة سروري.

حشد من الموظفين والموظفات، والمدير وراء طاولته الكبيرة، وفي وسطها قالب كاتو فاخر جداً، المنضدة مملوءة بصناديق ملفوفة بأوراق ملونة كلها هدايا من الموظفين والموظفات.

على يسار المدير زوجته، وعلى يمينه نائبه الأول، شذى تتحرك بين الجميع، كالنحلة، لا تكاد تستقر، النائب يتكلم، يؤكد رغبة الموظفين في إقامة حفل ميلاد خاص للمدير في مقر المديرية وفي مكتبه تعبيراً عن حبهم له.

شذى تتقدم، تدعو السيد المدير إلى إطفاء الشموع، تساعده على النفخ فيها، تصفق تصفق بحرارة، تحمل قطاعة الكاتو بيدها وتناولها للمدير، وتأبى إلا أن تضع يدها فوق يده وهو يقطع القالب، تباشر هي بنفسها في توزيع قطع الكاتو، لا يبقى سوى جزء صغير، تهتف مصفقة:

ـ هذه القطعة لي ولك، سيدي المدير، لن أقسمها، سنتناولها معاً من صحن واحد.

ثم تباشر هي بفض الأوراق الملونة عن علب الهدايا.

زوجة المدير تتابع بصمت.

تفتح العلب علبة علبة، تناول زوجة المدير الهدية، وتقول لها:

ـ تفضلي، قدمي الهدية للسيد المدير، هذه هدية السيد نائب المدير، وهذه هدية رئيس الدائرة، وهذه ....

ثمة علبة صغيرة مستطيلة، ملفوفة بورق فاخر، ترفعها إلى أعلى وهي تهتف:

. هذه هديتي.

توقف العرض، تلتفت إلى زوجها تسأله:

. حبيبي، هل تعرف ما هي هديتي؟

. لا أعرف.

. فكِّر؟

. قلم حبر، ليوقع به.

ـ أوه، اقتربت، صدقني عنده قلم باركر حبر خاص جداً، لا يستعمله إلا للتوقيع، لو تراه كيف يخرجه من سترته، وكيف يفتح غطاءه، وكيف يوقع، كل حركة موسيقا، قل سيفونية، توقيعه خاص مميز، سهل جداً لكن لا يمكن تقليده، يكتب اسمه أولاً، ثم يوقع، ثم يكتب تحته: المدير العام، اسمه أكبر من منصبه، اسمه فوق، حركة يده مميزة، صدقني، أنا أحضر له فنجان القهوة، يظل أمامه ساعتين، يرشف منه بهدوء.

يسألها مقاطعاً:

. نسيت الهدية؟

ترد وهي تضحك:

. وأنت لم تحزر؟

. قولي ما هي؟

. ستراها الآن.

تعيد تشغيل العرض، تظهر شذى وهي تفتح علبتها، وإذا الهدية ساعة، تحملها بيدها وتلوح بها أمام الجميع، فيصفق لها الجميع، ويمد المدير يده ليتناول الساعة، فتقول له:"لا، اخلع ساعتك القديمة"، يخلع ساعته، يناولها إلى زوجته عن يساره، شذى تقترب منه، تقف إلى جواره، تأبى إلا أن تضع الساعة في معصمه، بيدها، وهي تعلق: "هذه ساعة رولكس أوتوماتيك، حتى وأنت في الفراش مع زوجتك يجب أن تبقى في معصمك، حتى لا تتوقف، لأنها تعمل بالحركة".

زوجته تنظر إليها وهي ترفع شعرها عن جانب وجهها، نظرتها هادئة طويلة.

شذى توقف العرض، تنظر إلى زوجها، تسأله، مستنكرة:

. شربت فنجان شايك بسرعة.

. هذه عادتي.

تقترب منه، تهمس:

ـ سوف ترى الجزء الأخير من التسجيل، انتظر، حتى أسير به إلى قبيل النهاية.

وتظهر شذى وهي تسير في بهو المديرية.

تعلق:

. هذا زميلي هشام، هو الذي تولى التصوير، انظر، اختار التركيز على حذائي ومشيتي، قال يحب مشيتي بالكعب العالي، يقول كأني أعزف على مفاتيح البيانو، هو هاوي التصوير، قلت له: أنصح لك

احتراف التصوير، انظر انظر انتقل بالتصوير من حذائي إلى حقيبة يدي، عنده عين تلتقط الجمال، حركة يدي بالحقيبة تتوافق في انسجام مع خطوتي بالحذاء، ذكي، بل خبيث، أنا انتبهت إليه وهو يصوِّر، صدقني حاولت أن تهبط تنورتي قليلاً، لكنها ظلت فوق الركبة، وهو على كل حال لم يركز الصورة على ركبتي، كان كل تركيزه على الحذاء والحقيبة، ما رأيك؟

ـ ليته يصور شحاطتك وهي تسحل فوق الأرض وقدمك تجرها جراً، ولو سمعها هشام لشبهها بسحبة على الكمان، ما رأيك؟

تعلق:

ـ أوه، حبيبي، أنا هنا في بيتي ومع زوجي، من حقي أن آخذ راحتي، أنا أتصرف هنا بعفوية، وزوجي حبيبي لن يعتب علي، لهذا أنا في روب عريض مريح، هل أخلع لك هذا الروب وألبس لك التنورة والقميص والحذاء؟ وهل تريد أن أروح وأجيء أمامك وأنا أحمل الحقيبة مثل عارضات الأزياء؟ أنا هناك سكرتيرة وعندي عمل وحولي زميلات وزملاء، هنا أنت زوجي وحبيبي.

الزوج، ينهض، يسأل:

. هذه أول مرة أسمع عن مدير يحتفل بعيد ميلاده في مقر عمله وفي مكتبه الخاص؟

. لأننا جميعاً، نحن كل الموظفين وكل الموظفات، كلنا نحبه.

. ومن صاحب الفكرة؟

. أنا.

. ولماذا ما دعوتني؟

تسكت، تفكر، ثم تجيب:

. كما قلت لك، أنت زوجي، العلاقة فيما بيننا أكبر، حبي لك أكبر من تلك المظاهر، أنت الكل في الكل، أنت حياتي.

ينهض، يتمشى قليلاً في الغرفة، ثم يلتفت إليها ليقول:

. شذى، حبيبتي، ولكن بالغت في الاهتمام بالمدير.

شذى تصمت، تفكر، ترد بلطف:

. حبيبي، أعرف ذلك، لكن العمل هو العمل، وظيفتي تتطلب مني أن أتصرف وفق ما تصرفت، أنا مديرة مكتب، وأنا الأقرب من المدير، ولستُ موظفة عادية في الديوان أو في المستودع أو عاملة مقسم.

. أعرف هذا، وأنا شخصياً عرض علي المدير السابق العمل مديراً لمكتبه، ولكن فضلت البقاء رئيس قسم الحسابات، وكل الزملاء لاموني، ولكن فضلت البقاء في عملي، أعرف، وظيفة مدير مكتب لها ضريبتها.

ويصمت ثم يضيف

. والآن، بالمناسبة، مر على زواجنا ثلاث سنوات، وأنت مصممة على تأجيل الحمل، متى سيأتي الوقت المناسب لنتخذ القرار بالإنجاب.

تضع يدها على كتفه:

ـ هذا ماكنت أخشاه، الحمل يعني فقداني لمنصب مدير مكتب المدير، ستمتلئ بطني، وسيترهل جسمي، وتثقل حركتي، واضطر إلى

انتعال حذاء مثل هذه الشحاطة، ثم آخذ إجازة أمومة أربعة أشهر، ثم ثلاثة أشهر أخرى من غير راتب للعناية بالمولود، حتماً لن أعود إلى عملي مديرة لمكتب السيد المدير، سأنزل إلى الديوان، سيصبح اسمي أم شادي، كأني عجوز في الستين، لن ينادوني أحد ست شذى.

صمت، ثم تضيف:

. حبيبي، أرجوك، دعنا نسعد بحياتنا الزوجية، الحمل سيفقدنا متعة الحياة.

ـ هذا غريب منك يا شذى، المرأة هي التي تفكر بالحمل، قبل الرجل، لتحقق أمومتها.

ترد بحزم:

. أريد أن أعيش حياتي.

. حياتك في عملك ما هي في العمل وحده، حياتك في العمل وفي بيتك مع زوجك وأولادك، لذلك لا حظي الثوب البرتقالي الفضفاض العريض الذي يغطي جسمك، والشحاطة التي في قدميك، هذا هو لباس المرأة الحامل، التي تستعد لتصبح أماً.

. ولماذا لا تقول هذا دليل على كرهي للحياة الزوجية، وما فيها من التزامات وواجبات، هات شاي، هاتي قهوة، اطبخي، امشي معي لزيارة أمي، لماذا لا تقول هو مثل ثياب سجناء غوانتنامو.

الزوج ينهض، ينمضي إلى النافذة، ينظر من خلالها، ثم يلتفت ليسألها:

ـ وهل البيت الذي سعينا لتأثيثه والعيش فيه وتعبنا لأجله أصبح مثل سجن غوانتنانمو؟

شذى ترد ببرود وهي مسترخية في مقعدها وفنجان الشاي بيدها ترشف منه على مهل:

ـ صار، أو سيصير، بل صار.

يصمت، يقترب منها، يتكلم:

ـ شذى، ما رأيك في رؤية التسجيل مرة ثانية؟

تغير من لهجتها، تتكلم برشاقة، تسرع إلى جهاز العرض، تهم بتشغيله، وهي تسأل:

ـ هل أعجبك حبيبي؟ بالله عليك، قل لي ما الذي أعجبك فيه؟ قميصي تنورتي؟ حذائي حقيبتي؟ حركتي؟ قل لي بالله عليك؟

يصمت، بهدوء يتكلم:

ـ بصراحة أعجبني وقوف زوجة المدير إلى جانب زوجها، أريد إلقاء نظرة ثانية عليها.

تتوقف، لا تشغل جهاز العرض، تصيح:

ـ ما الذي أعجبك فيها؟ سمراء، قصيرة، شعرها أسود، أو ما رأيت بطنها المكورة، هي بالمناسبة حامل في الشهر الرابع، وكما تدّعي، حامل بتوأمين ذكرين وتفاخر بذلك، كأنها أول امرأة حملت بتوأمين؟ قل: ما الذي أعجبك فيها؟

يرد بهدوء:

. هذا الذي أعجبني فيها، أعجبتني لأنها زوجة بحق، وأم.

أبو عصام*

لا شيء يسر، بل كل شيء مقرف، ومنفِّر، غرفة المكتب ضيقة، زجاج النافذة يعلوه الغبار كأنه لم يمسح منذ ألف سنة، الغبار في كل مكان، فوق المنضدة، وعلى الأرض، ثمة خزانة خشبية من عهد آدم، تغص بأوراق امتحان ومذاكرات مصفرة، على سطح المنضدة بقع من كؤوس الشاي وفناجين القهوة، منفضة تغص بأعقاب السكائر، وهذا زر جرس في الجدار، أضغط عليه فأسمع رنين جرس من بعيد، أكرر الضغط، فيتردد الرنين، هذا هو أجمل شيء، ثمة كهرباء وجرس ورنين، ثمة حياة إذن.

يدخل الآذن ملبياً بسرعة رنين الجرس، وبيده خرقة مبللة بالماء، يعمل فوراً في مسح سطح المنضدة، وهو يتكلم: لا تؤاخذني دكتور، والله الشغل كثير، أنا وحدي هنا في البهو، وعندي أكثر من عشرين غرفة مكتب، حقك علي.

قصير، نحيل، ذقنه غير حليقة، قميصه من عهد نوح، ولكنه نظيف، ما يزال يمسح بخفة من غير أن يرفع وجهه إلي، يداه نظيفتان، أظفاره مقصوصة، حتى الخرقة تبدو جديدة، كأنه يستعملها أول مرة.

. ما اسمك؟

* قصة شبه تسجيلية، شخصية حسن بيضة وشخصية عبد الوهاب صابوني شخصيتان حقيقيتان، باقي الشخصيات متخيلة، وأي تشابه مع شخصيات مماثلة مجرد مصادفة.

. أنا بشير.

ـ وماهذه الدفاتر والأوراق؟ تملأ الرفوف وفوقها الغبار من ألف سنة؟

يتوقف عن المسح، يداه وراء ظهره، كأنه يريد إخفاء الخرقة، يتكلم بهدوء وحياء، كأنه يعتذر:

ـ دكتور هذه الغرفة خاصة بالدكاترة الضيوف القادمين من جامعات دمشق وتشرين والحسكة، وكل دكتور له مزاجه، مع احترامي لهم جميعاً، وتبقى هذه الغرفة في أكثر الحالات مغلقة، غداً ترى الغرفة مثل الليرة الذهبية.

ـ لا، غداً أنا في دمشق، أنا مسافر بعد ساعتين، أنا آتي يوم الثلاثاء فقط، أريدها في صباح الثلاثاء نظيفة، لن أدخل إليها أكثر من نصف ساعة بعد كل محاضرة، وبعد انتهائي من المحاضرات أبقى فيها ساعة فقط، مثل هذا الوقت عند الساعة الثانية، مع فنجان قهوة، وبعدها أسافر إلى دمشق.

. حاضر، أمرك دكتور، أنا سأنظفها الأسبوع القادم، يوم الإثنين، هل تريد أي شيء آخر، أنا الآن سأحضر لك فنجان قهوة.

أقول له:

. قبل القهوة، اغسل يديك بالماء والصابون، مرتين أو ثلاث مرات، لا تقل هي مسألة غبار، هذه فيها ملايين الجراثيم، يجب أن تستعمل الديتول.

يهم بالانصراف، وهو يقول:

. حاضر دكتور، عندي منظف قوي.

أستوقفه:

. علمت أن في الكلية عندكم هنا مكتبة خاصة فيها كتب متميزة.

. نعم.

أستل وريقة صغيرة من علبة الأوراق أمامي على المنضدة، أكتب عليها، أضع اسمي وتوقيعي، أناوله الورقة، أقول له:

ـ أحضر لي من هذه المكتبة الخاصة هذا الكتاب، شرح المعري لديوان المتنبي، واسمه معجز أحمد، وبعد ذلك أحضر لي فنجان قهوة بلا سكر.

بشير ينظر في الورقة، يقرؤها، يتأملها، ينظر إلي، لا يتكلم.

. أنت متردد، ما المشكلة؟.

. دكتور، أنت ضيف جديد، ولا تعرف طبيعة هذه المكتبة.

. وما طبيعتها؟ هل هي من فضة أم ذهب؟

. لا، ولكن كتبها لا تعار إعارة خارجية.

. أنا لن أستعير الكتاب، ولن آخذه إلى البيت، مكتبتي غنية، ولكن الآن احتجت إلى هذا الكتاب، سأستعيره ساعة ثم أرده، قبل سفري.

. دكتور.....

ـ لا تتردد، هيا أحضر الكتاب بسرعة، قل للموظف هو للدكتور أحمد.

. لا أستطيع.

أنظر فيه مدهوشاً، أمد إليه يدي ببطاقة تحمل اسمي.

. خذ، هذه بطاقة باسمي، قل للموظف: الدكتور أحمد يريد الكتاب فوراً.

. الموظف لا يسمح بخروج أي كتاب من المكتبة.

. الموظف؟!

. نعم.

ـ ومن هذا الموظف؟ هل يظن نفسه أمين مكتبة الأسكور يال أو الفاتيكان أو الكونغرس؟ هيا، لا تتأخر.

ـ دكتور، قلت لك، أنت جديد هنا في الكلية، ولا تعرف هذا الموظف؟

. قل لي، هل المسألة مسألة موظف؟أم هي مسألة مكتبة؟.

ـ الموظف لا يسمح، وهو أمين عليها، وقانون المكتبة لا يسمح، كتبها نادرة.

ـ لا تصدق هذا، كل أمناء المكتبات يسرقون الكتب النفيسة والنادرة ليبيعوها، أنا سأتصل بالعميد، سأشكو هذا الموظف.

. دكتور لا تحاول، العميد والدكاترة كلهم يعرفون، لا يجوز إخراج أي كتاب خارج هذه المكتبة.

. أنا سأذهب بنفسي إلى هذا الموظف، وسوف أستعير هذا الكتاب وسآخذه إلى دمشق، ولن أعيده حتى الأسبوع القادم.

. دكتور، لا تحرج نفسك.

. قل لي ما اسم هذا الموظف؟

. حسن، حسن بيضة.

ـ توقعت أن يكون حسن ديك، لو كان حسن ديك كنت ذبحته وقطعت رأسه، بيضة؟ أنا سأكسر هذه البيضة، قل لي هل هو دكتور في علم المكتبات؟.

. لا.

ـ أعرف هذا، ليس عندنا دكتور في علم المكتبات، ولو وجد لما عمل أمين مكتبة، قل لي هل هو مجاز في الحقوق أو في اللغة العربية؟

ـ أظن معه الشهادة الثانوية، لا أكثر، وربما دورة في علم المكتبات.

. زدتني رغبة في الكتاب، بل في معرفة هذا الأمين على المكتبة، سأذهب إليه أنا بنفسي، لن أستعير هذا الكتاب، سأتعرف إلى هذا الموظف، سأجعله يعرف من أنا، وسوف أحطم رأسه، سأكسر هذه البيضة، سأفتح المكتبة حتى للطلاب.

ـ يا دكتور، أرجوك، الأمر لا يتعلق بالموظف، الأمر يتعلق بالمكتبة، المكتبة لها خصوصيتها.

. وما هذه الخصوصية؟ حدثني.

ـ في هذه المكتبة عشر خزائن خشبية فاخرة، أو أكثر، أظن أن فيها اثنتي عشرة خزانة، عمرها الآن أكثر من مئة سنة، وهي لا تقدر

بثمن، عرض أحد هواة التحف شراء الخزائن الخشبية وحدها، عدا ما فيها من كتب، بعشرة آلاف دولار.

ـ ما هذا؟ لا أصدق؟ عشرة آلاف دولار؟! والدولار اليوم بخمسين ليرة، يعني بخمسمئة ألف ليرة،؟ ! لا أصدق.

ـ هي من خشب الجوز، ونجرت بطريقة لا يدخل إليها ذرة من غبار.

. خشب أو حديد، القيمة في الكتب لا في الخزائن والرفوف.

ـ نعم، صدقت دكتور، ولهذا لا يسمح أمين المكتبة بإعارة أي كتاب.

. وهل هي من ذهب؟

ـ أنا لا أعرف، ولكن قال لي أمين المكتبة الكتب في طبعتها الأصلية، ونادرة، وعليها تعليقات مهمة جداً.

ـ أعرف، كل الكتب في المكتبات العامة على حواشيها تعليقات سخيفة.

ـ لا، هي كما سمعت تعليقات علمية من صاحب المكتبة، رحمه الله.

ـ لا تصدق، صاحب المكتبة على الأغلب غني يهوى شراء الكتب، أنا أعرف كثيراً من هؤلاء، الواحد منهم شبه أمي، ولكنه يهوى اقتناء الكتب، كي يفاخر الناس بأن عنده مكتبة.

. لا، هذه المكتبة كان صاحبها أستاذ لغة عربية.

. كان هنا في الكلية؟

. لا، هو أستاذ في مدارس حلب.

. زدتني فخراً، ما أكثر أولئك المعلمين، وكل واحد منهم يظن نفسه سيبويه، وكل همه إعراب كلمة أو جملة، ولا يستطيع كتابة عشر جمل، لا يفكر إلا باللغة والنحو والإعراب فتجف قريحته ولا يكتب، إلا من رحم ربي، وما أقلهم.

. لا، هذا عالم، عنده أشعار وروايات وكتب في النحو والأدب، كل سنة يقيم أمين المكتبة ندوة إحياء لذكراه في المركز الثقافي بحلب، أنا حضرت مرة واحدة من هذه الندوات أقامها هنا في الكلية، أمين المكتبة هو تلميذه، ويحبه، وكل سنة يدعو الأدباء ليتحدثوا عنه، كلهم يمدحونه، ويذكرون علمه، والدكاترة كلهم هنا يقدرون هذه المكتبة، ولا يطلبون استعارة خارجية، ويحترمون هذا الموظف، ويحبونه، وأنا أعرفه، هو محترم، وحريص على المكتبة والكتب، وعلى احترام الدكاترة كلهم.

. وما اسم الأستاذ العظيم صاحب تلك المكتبة؟

ـ عبد الوهاب الصابوني، وعلى باب المكتبة لوحة تحمل اسمه، والمكتبة هي باسمه، وله صور في المكتبة، كانت له زيارات إلى كثير من دول العالم، هو الذي أوصى أن تهدى المكتبة إلى الكلية بعد وفاته، وأن يخصص لها غرفة، ولا تخلط كتبها بكتب مكتبة الكلية.

ـ يا إلهي، ماهذا الغرور، وما هذه الأنانية، يريد أن يخلد التاريخ اسمه، ما هذا التخليد العظيم، الآن ملايين الكتب يمكن تخزينها على قرص مضغوط.

ـ أنا أسمع الدكاترة هنا يتكلمون عند العميد بهذه الموضوعات، بعضهم يقول لا يمكن إلغاء الكتاب، ويقول أكثرهم إن قيمة هذه المكتبة في أن تظل كما هي من غير أن تتبعثر كتبها، وتختلط بغيرها، وسمعت أن لها فهارس مرتبة تساعد على الاستفادة منها، أنا لا أعرف.

ـ هذا لايهمني، أنا الآن سأذهب إليه بنفسي، الساعة الآن الثانية تماماً، يجب أن أراه قبل أن ينصرف، هذا إذا كان لم ينصرف منذ ساعة، أنا أعرف الموظفين من أمثاله، يهربون عند الساعة الواحدة.

. لا، هذا الرجل هو الآن متقاعد، وهو يأتي إلى المكتبة حباً لها، ووفاء لصاحبها، وهو حتى الآن أول من يداوم وآخر من ينصرف، وفي كثير من الأحيان يبقى في المكتبة حتى الثالثة أو الرابعة، حتى آخر محاضرة في الكلية، حتى انصراف آخر طالب.

ـ من الطبيعي أن يبقى إلى الرابعة، حتى تأتيه طالبة ويخلو بها في المكتبة، ولا عين رأت ولا أذن سمعت.

ـ لا والله يادكتور، صدقني هذا الرجل ما هو من هذا النوع، أنا أعرفه، إذا كان وحده في المكتبة، وجاءت طالبة، أعطاها الكتاب الذي تريد، وتركها وحدها في المكتبة ووقف هو في البهو عند النافذة أمام باب المكتبة، أو حمل كرسياً ووضعه عند الباب وقعد.

. هذا يعني أنه لا يثق بنفسه.

. على كل حال، هذا الرجل الآن متقاعد، كما قلت لك، وهو فوق الستين من العمر، وسمعته كانت وما تزال مثل المسك، تمدح باسمه كل الموظفات في الكلية.

. أنا ما انتبهت، هل قلت هو متقاعد، ويداوم؟!

. نعم، متقاعد ويداوم، حباً بالكتاب، ووفاء لصاحب المكتبة، قلت لك هذا.

ـ حتى الآن ما قلت لي أين تقع هذه المكتبة الأفلاطونية؟ دلني على موقعها في الكلية، سأذهب لأرى هذا الموظف.

ـ هي فوق هذا الدور تماماً، في آخر البهو، بعد مكتب الآلة الكاتبة مباشرة.

ـ أوه، ذكرتني، يجب أن أذهب فوراً، أنتظر من الموظفة طباعة قرار تكليفي بالساعات الإضافية هنا عندكم في الكلية، اليوم أحضرت بنفسي من دمشق قرار الموافقة على تكليفي، ووضع عليه العميد حاشية، وصاغ رئيس الدائرة القرار، وهو الآن كما علمت في قسم الطباعة، سأمر لأخذه وتوقيعه.

. دكتور، إذا شئت أحضرته لك أنا بنفسي.

ـ لا، أنا سأذهب لإحضاره، وسأمر بهذه المكتبة المشؤومة، وأرى مالك خازن جهنم، أنت قلت لي اسمه حسن، وأنا سأسميه مالك.

يهم بشير بمغادرة الغرفة، أناديه، أستوقفه، أمد إليه يدي بخمسمئة ليرة، أقول له:

. تعال بشير، خذ، هذه خمسمئة ليرة لك، من أجل تنظيف الغرفة، وإذا كنت تعرف طالبة ذكية وخطها جيد، أريد أن تعرفني عليها، كي أطلب منها تسجيل أسماء الطلاب وعلاماتهم، طبعاً ليس اليوم، إنما الأسبوع القادم.

بشير يرفض أخذ خمسمئة الليرة، يقطب جبينه، يشير بيده إشارة رفض:

. لا يادكتور، تنظيف الغرفة وترتيبها واجبي، ومن ناحية الطالبات أنا لا أعرف واحدة من واحدة، وهذا ليس من عملي، أنا هنا في الكلية من ثلاثين سنة، طوال عمري ما طلب أي أستاذ مني مثل هذا الطلب، أنا...

. لا يا بشير، أنت فهمتني بشكل غير صحيح، أنا ما طلبت منك أي شيء، وهذه الخمسمئة هدية مني، هذا شيء عادي، أنت أخطأت في الفهم، على كل حال، انس هذا الموضوع، أنا في الأسبوع القادم سأحضر لك معي من دمشق برازق شامية.

. شكراً دكتور، لا تتعب نفسك، كانت برازق دمشق مشهورة، اليوم في حلب محلات تصنع برازق تنافس برازق دمشق، الأسبوع القادم ستجد هنا على المكتب برازق تنسيك برازق الشام، هدية مني أنا لك.

ـ لا، لا، يا بشير، لا أسمح لك بهذا الكلام، على كل حال سامحتك هذه المرة، وانس قصة البرزاق نهائياً، ولكن لا تنس تنظيف الغرفة، لا أريد أي شيء آخر، حتى فنجان القهوة لا أريده، أنا ذاهب الآن فوراً إلى مكتبة الأسكور يال، وسأمر بقسم الطباعة.

*

أدخل إلى غرفة الطباعة، أربع مناضد في صفين متقابلين، ليس فيها أي موظفة، خاوية على عروشها، كأنها قبور، لا ينقصها غير الشواهد، حتى الورود لا تنقصها، على كل منضدة كومة صغيرة من الياسمين الأبيض، لا أعرف من جاء بهذه الزهرة الشامية إلى هذه المقبرة الصامتة، وهناك في الصدر على ما يبدو رئيسة قسم الطباعة، وهي قاعدة وراء منضدة طويلة عريضة في عمق الغرفة، هاهي تنهض لاستقبالي، أقول لها:

ـ العميد حوّل لك كتاب الموافقة من جامعة دمشق على تكليفي بساعات إضافية، أنا الدكتور أحمد محمود أحمد الحمدان، هل انتهيت من طباعة قرار جامعة حلب بتكليفي بالساعات الإضافية؟

تنهض من وراء مكتبها، ناعمة صغيرة، كأنها دون العشرين، وإن كانت في الواقع فوق الثلاثين، تتلفع بشال سماوي اللون رقيق، تحيط به شعرها، وجهها يتألق، مثل غيمة من سكر، مثل تلك الغيمات الرقيقة التي يصنعها الرجل من سكر يدوره في وعاء، ويتقاطر عليه الأطفال، وهو يذوب في الفم مثل الهواء، ما أحلاها، عيناها زرقاوان، فمها ناعم،

تتكلم وهي ما تزال واقفة، تتكلم وهي تغنج، تشير بيديها، أود لو أقضم أناملها المطلية بالوردي الشفاف.

. أهلاً بالدكتور أحمد، تفضل لتستريح، الآن أخذ الآذن القرار في مسودته الأولى، أعاده إلى رئيس الدائرة لتصحيحه.

. وماذا سيصحح فيه؟

تخرج من وراء المنضدة، تتجه إلى مقعد أمام المنضدة، تقف قبالتي، وهي تقول:

. تفضل، اجلس.

تلح علي بالجلوس، أستقر في مقعد قبالة طاولتها، تتخذ هي مكانها في المقعد المقابل، كم هي ناعمة، أود احتضانها بكلتا يدي، حتى القميص الذي ترتديه من لون عينيها، حتى شذاها أحس به سماوي اللون، أي ذوق هذا، تتكلم وإشارات يديها كأنها حمامة تود لو تطير.

. أنا ابتسام.

حقيقة أنت الابتسام كله، ابتسام الصباح، ابتسام الموسيقا، ابتسام العطر، ابتسام الغمام، ابتسام الشمس إذا أشرقت.

. وأنا الدكتور أحمد، الأستاذ في جامعة دمشق، أنا مكلف عندكم هنا في جامعة حلب بمحاضرات إضافية، أنا أحضرت معي من دمشق قرار الموافقة على تكليفي بساعات إضافية في جامعة حلب، وأتمنى أن أعود ومعي قرار تكليفي هنا في جامعة حلب بساعات إضافية في الكلية.

ـ أهلاً بك دكتور، أنا هنا مستشارة قانونية، بالإضافة إلى عملي رئيسة قسم الطباعة، دققت القرار، فوجدت في صياغة رئيس الدائرة خطأ في صياغة قانون المادة رقم ٨٩ لذلك أعدته إلى رئيس الدائرة ليصحح الخطأ ويوقع عليه هو بنفسه، ثم ليوقع العميد، بعد قليل سيعيده الآذن، فور الانتهاء من طباعته أنا سأحضره إليك بنفسي إلى مكتبك.

. شكراً لك، ولكن من سيطبعه، لا أجد أي موظفة؟

ـ أنا سأطبعه، وسأوقعه من السيد العميد وأحضره بنفسي إلى مكتبك.

ـ أشكرك لا تتعبي نفسك، أنا سأزور هنا أحد الموظفين، سأرجع إليك بعد ربع ساعة.

ـ كما تشاء أهلاً بك، وإلى أن ترجع سأكون قد طلبت لك القهوة من الآذن.

. لا تتعبي نفسك.

. هذا لا يجوز أنت ضيفنا، أنا أحب دمشق، وأنا متخرجة في كلية الحقوق بدمشق، وأمي دمشقية، وأبي من حلب.

. هذا يسرني جداً، أود سؤالك.

. تفضل.

ـ لاحظت وجود كومة صغيرة من زهرات الياسمين البيضاء على كل مكتب من مكاتب الموظفات حتى على مكتبك؟!

ـ أوه، ملاحظتك شعرية وجميلة، عندنا هنا موظف لطيف جداً، وطيب جداً، اسمه أبو عصام، كل يوم يمر بنا صباحاً يحمل كيساً صغيراً مبللاً بالندى، فيه زهرات الياسمين، يضع على كل مكتب كما ترى كومة صغيرة، يحملها بقبضة يده بلطف، كأنه يحمل عصفوراً صغيراً ويضعها على المكاتب كومة كومة مكتباً بعد مكتب.

. وهل عنده حديقة ياسمين أو هل عنده محل لبيع الياسمين؟

ـ لا محل عنده ولا حديقة، هو يأتي كل يوم من بيته إلى الكلية ماشياً، بيته قريب من الكلية، وفي الطريق يمر بعمارات، الياسمين يعرش فيها على الأسوار، حتى إنك لترى الياسمين الأبيض مترامياً على الأرصفة، والشذى الناعم يضوع منه.

. أنت شاعرة.

. لا أنا لست شاعرة، هو الشاعر، هو الذي يحكي لنا هذا.

. لا شك أنه عاشق لإحدى الموظفات.

. نعم هو عاشق ومحب، سمِّه ما شئت، لكنه محب للكل، عاشق للجميع، هو يحب الروح، صدقني، يضع الياسمين بقدر واحد على كل طاولة، لا تجد كومة أكثر من كومة، كأنه يعد الزهرات واحدة واحدة، هو يمد يده بالكيس ويخرجها وقبضته مطوية على الياسمينات بلطف.

. لا أصدق، هل عندكم ياسمين هنا بحلب، أعرف الياسمين زهرة شامية.

ـ أنت لا تعرف حلب، لا تخلو شرفة ولا يخلو سور في عمارات حلب من الياسمين، زهر الياسمين تجده في كل مكان، سترى بائعات يصنعن منه أطواقاً يعرضنها على الصبايا والشباب، هنا في الساحة أمام الجامعة ستجد فتاة صغيرة تبيع أطواق الياسمين، ولا تنس هذه الزهرة زهرة الشام، أنا لا أنسى بيت جدي لأبي هنا في حلب، فناء الدار واسع، تتوسطه بركة، وفي الصدر مصطبة، تعلوها عريشة ياسمين، لا أحلى منها ولا أجمل.

تنهض، رشيقة مثل فراشة، تحمل كومة الياسمينات بيدها الصغيرة الناعمة، تمد يدها إلي وهي تقول:

. تفضل خذ هذه الياسمينات.

أنهض من مقعدي، أقول لها:

. لا، أشكرك، هي لك.

. خذ هذه الياسمينة فقط.

. سآخذها عندما أرجع.

. وعد.

. أعدك بذلك.

ـ شكراً سأبقى في انتظارك، وحين ترجع أكون قد طبعت القرار، وأنا الآن سأذهب إلى رئيس الدائرة بنفسي لأحضر القرار لا تقلق، ستحمل معك اليوم القرار إلى دمشق، أنت ضيفنا، أنت من بلد أمي.

عند الباب هي تودعني، أقول لها:

. أنا حاجز للسفر في الساعة الرابعة، والآن الساعة الثانية والربع، سوف أتصل بالشركة لتغيير الحجز، سأجعله في السادسة، سأمر وآخذ القرار، ثم ننزل معاً، أنا أدعوك لتناول الغداء في المطعم باختيارك أنت وعلى ذوقك.

تتفاجأ، ترجع إلى الوراء، تضع يدها على صدرها، تتكلم بثقة، وهي ما تزال تبتسم، وتغنج في حركتها، وجسمها يترجح أمامي مثل سمكة خرجت من الماء:

ـ لا، أرجوك دكتور، أشكرك، وأقدر دعوتك، ولكن للأسف، أعتذر، أعتذر بشدة، أنا زوجة وأم وربة بيت، كان من واجبي الترحيب بك وتكريمك، أنت أستاذ جليل، زوجتك لا شك تنتظر وصولك إلى دمشق بالسلامة، والأولاد، وربما الأحفاد أيضاً، لا تنس أمامك خمس ساعات من السفر، الأفضل أن تصل إلى دمشق باكراً.

أرد عليها مداعباً، وأنا ما أزال في الباب:

ـ لا، لا، لا يا ابتسام، أنت ابنتي، وأنت ذكية، لا أريد أن أتهمك بسوء الفهم، سامحك الله، دعوتي لك هي دعوة الأب لابنته، وأنا صدقيني كنت أشتهي قطف قبلة من هذا الخد.

تعود إلى مكتبها، تحمل مفاتيحها، تقول:

ـ لا، دكتور، اسمح لي، أنا لن أخطئ في فهمك، ولكن المشكلة أنني أعامل كل من يراجعني بهذا التكريم وهذا الترحيب، وهذه طبيعتي، أنا أتصرف بعفوية، هذا جزء من تربيتي، ومن شخصيتي، نحن هنا

جميعاً مع السادة الدكاترة أسرة واحدة، ولكن للأسف قد أجد أحياناً من يسيء فهمي، أنا لا يهمني، هذه هي أنا، هذه هي أخلاقي، ولن أتغير.

. انسي الموضوع، ولكن لا تنسي القرار.

ـ أمرك دكتور، هذا واجبي، لا يمكن أن أنسى، ولن أنسى، بعد ربع ساعة سترجع لتأخذ القرار، وتحمله معك إلى دمشق، وتصل إلى بيتك وزوجتك وأولادك بالسلامة، والقرار معك.

. أنا هنا إلى جوارك في المكتبة.

ـ ستجدني في انتظرك، أرجوك سلِّم لي على الأستاذ حسن مدير المكتبة، قل له ابتسام تسلم عليك، حملك السلام له أنت له بشكل خاص له معنى مختلف عنده، سيسر جداً بك، أنت في حقيقة في مقام الأب.

*

غبية، جاهلة، حقيرة، أب، تعاملني معاملة الأب، لعن الله الآباء كلهم والأمهات، تربية آلاف السنين لا يمكن أن تمحى، تحرم نفسها متع الحياة، هذا الجسد سيموت، ويبلى ويأكله الدود، لا أعرف لم نحرمه حقه، أنا متزوج، وأنت متزوجة، كلنا متزوجون، ماذا يعني هذا؟ هل هو قفص حديدي؟ هل هو حزام أمان حديدي؟! لكل جسد طعمه ومذاقه ونوعه وشكله ولونه ورائحته، ولو كنت في الستين، حتى لو كنت في السبعين، ماذا يعني هذا؟، هل أحمل كفني وأمشي إلى القبر، حتى في القبر سوف أستمتع بالدود الذي سيأكل هذا الجسد، ليت الدود يلتهم هذا الجسد الآن وأنا حي، لأستمتع به وهو يأكلني، غباء، جهل، حرمان،

تعقيد، أين الحرية؟ نحن معقدون، خسارة عودتي إلى الوطن، حياتي الحقيقية كانت هناك في باريس، كان يجب ألا أعود، أنا حفيد سارتر وتلميذه، في المترو أمام كل الناس يمكن أن تقبل الفتاة التي تعجب بها، وهنا، حتى بين أربعة جدران لا يمكن أن تقبل زوجتك، وبعد ذلك لماذا تحملني السلام إلى حسن بيضة أو حسن ديك أو حسن دجاجة؟ ولماذا أحمله أنا؟ ماهذا؟ هل هو جارها؟ عشيقها؟ هل هو أشقر وناعم مثلها هل هو الشاب الظريف أو زورو العفيف؟

*

مكتبة عبد الوهاب الصابوني في آخر البهو، أخيراً هذه هي، سأدخل مكتبة الكونغرس، أو مكتبة لندن.

أربع مناضد مستطيلة، حواليها كراس خشبية، لا أحد من الطلاب، ليس في المكتبة سوى ذلك الموظف الأسمر، القاعد وراء المنضدة في عمق المكتبة، هذه هي الخزائن على الطرفين، زجاجها لامع نظيف يشف عن كتب كلها مجلدة ومذهبة ومصفوفة بأناقة.

أتقدم من الموظف، ينهض لاستقبالي، ليس قصيراً وما هو بالطويل، سمرته داكنة، شعره أسود، عيناه سوداوان صغيرتان، أنفه كبير قليلاً، فمه واسع عريض، يعلوه شاربان كثيفان، في الستين من عمره، أو أكثر قليلاً، وجهه يدل على الترحيب العفوي.

. أريد معجز أحمد، هل يوجد هنا عندك في المكتبة.

ينهض لاستقبالي، يغادر موقعه خلف المنضدة، يتقدم نحوي.

على المنضدة أمامه كومة من زهرات الياسمين، هي كومة كبيرة، أكبر من الكومات الموجودة على مناضد الموظفات، هل زميله الموظف صاحب الياسمين، أبو عصام كما قالت، يمر به أيضا كل يوم ويعطيه ضعف ما يعطي لكل موظفة، هل يطبق النص "وللذكر مثل حظ الأنثيين".

. أنت حسن بيضة.

. نعم، أهلاً وسهلاً دكتور، تفضل، تشرفت بزيارتك لمكتبة الأستاذ عبد الوهاب الصابوني، تفضل اطلب أي كتاب.

. أريد شرح المعري لديوان المتنبي.

. معجز أحمد، أهلاً وسهلاً، هذا أنفس كتاب في المكتبة، انا قرأته ثلاث مرات، وللأستاذ الصابوني على حواشيه تعليقات واستدراكات، سوف تدهشك، تفضل، سأحضر لك أوراقاً وقلماً، لتنقل منه ما تشاء، تفضل.

ـ لا، لا تحضر أي شيء، حتى قبل أن تحضر الكتاب، من هذا الصابوني حتى يعلّق على كلام المعري ويستدرك عليه، وأنت هل قرأت الكتاب حقيقة ثلاث مرات؟! وما الفائدة من قراءتك له؟.

ـ دكتور، أولاً أنا أرحب بك مرة ثانية، وأقدر الأساتذة الدكاترة وأحترمهم جميعاً، ويسرني أن أهديك هذه الياسمينات.

ـ احترامك للدكاترة واجب عليك وعلى جميع الموظفين، هذا أمر طبيعي، على كل حال ماذا سأفعل الآن بهذه الياسمينات، اتركها إلى

حين خروجي، حدثني عن هذه المكتبة التي سمعت عن خصوصيتها، هل صحيح ما يقال من أنك لا تسمح أنت بالإعارة الخارجية حتى للدكاترة؟.

. أنا لا أمنع، ولكن لكي تعرف سبب منع الإعارة الخارجية أرجو أن يكون عندك بعض الوقت، لأحدثك عن صاحب المكتبة الأستاذ عبد الوهاب الصابوني.

ـ لا بأس، ماعدت أريد الكتاب، أثرت فضولي، وعندي بعض الوقت هات حدثني عن الصابوني.

. لن أطيل عليك، عبد الوهاب صابوني أستاذ جليل، وعلامة، له كتب في الأدب واللغة والنحو، أهمها كتابه:"اللباب في النحو"، وله رواية مطبوعة عنوانها "عصام" وهو شاعر، ولكنه لم ينشر من شعره أي شيئ، وهو بالإضافة إلى ذلك ميكانيكي، جلب إلى شقته أدق الأجهزة لتصنيع عنفات ومسننات، وهذه صورته على الجدار.

ـ أوه، وجه حاد الملامح، لاشك أنه نحيل، وقصير القامة، ويبدو لي أنه كان أشقر، عيناه حقيقة تشعان ذكاء، التفاتته تدل على عصبية وتوتر.

ـ أنا أشكرك دكتور، وأحييك، لآن أثلجت صدري، أنت صاحب نظر ثاقب، ويسرني أن أحدثك عنه أكثر، ولكن أكتفي الآن بإهدائك كتاب أنا ألفته عنه، وستجد فيه دراسة متواضعة عنه، وهو من مواليد عام ١٩١٢ وتوفي عام ١٩٨٦، ولكن مهما حدثتك الآن عنه، أو مهمها

كتبت عنه، فلن أفيه حقه، ولذلك أنا أقيم له كل سنة ندوة ثقافية تعرف به وبمؤلفاته، فقط اسمح لي بإهدائك نسخة من كتابي عنه.

ينهض، يسرع إلى منضدته، يفتح أحد الأدراج، يستل ثلاثة كتب، يقدمها إلي واحداً واحداً.

. تفضل دكتور، هذا عن عبد الوهب الصابوني، وهذا عن إبراهيم هنانو، بطل الثورة السورية لتحريرها من الاستعمار الفرنسي، وهذا رواية عنوانها الجامعة، أتحدث فيه عن طفولتي في حي المعادي أحد أحياء حلب العريقة وعن عملي في الجامعة، أنا من عشاق حلب وعمارتها وتراثها وفنونها، ستقرأ فيه كل ما يجب أن تعرفه عن حلب.

. ما الشهادة التي تحملها؟

ـ أنا أحمل الشهادة الثانوية فقط، ولكنني مواظب على القراءة، حتى في أثناء الخدمة العسكرية، وأنا في الجبهة في قلب الحرب، كنت لا أنقطع عن القراءة، القراءة بالنسبة إلي هي الحياة، أنا متقاعد، ولست موظفاً، ولكن أداوم مثلما يداوم كل الموظفين، هنا أعيش مع المعري والمتنبي، مع الجاحظ والتوحيدي، مع العقاد وطه حسين.

. وما الذي تجنيه من هذه القراءة؟

ـ هي متعة ما بعدها متعة، أنا أعيش هنا مع رجال عظام، هذه متعة الحياة، وإذا انتهى الدوام ذهبت إلى المعارض الفنية، الفنان العالمي سامي برهان ابن حلب صديقي، له نصب في قلب جدة يمثل كلمة الله، وفي مدخل الأمم المتحدة، وفي معهد العالم العربي بباريس، ونصب عن

مصطفى العقاد المخرج السينمائي العالمي ابن حلب، وعبد الرحمن موقت، صاحب نصب الشهداء في قلب حلب، هو من أعز أصدقائي، هل تريد مني العودة إلى البيت لآكل وأنام؟ الفن والشعر والموسيقا هي حياتي، أنا لا أترك أي حفل موسيقي إلا حضرته، الأدباء والشعراء مع الفنانين والموسيقيين هم أصدقائي.

. ومن صاحب هذه الصورة؟ هذا الرجل الخمسيني الأنيق المظهر جداً والوسيم وصاحب النظرة الذكية والمفعمة بالعواطف والمتألقة من وراء النظارة الطبية؟

. هذا صديق العمر، والخل الوفي، هذا الرجل الصوفي، والشاعر الرقيق، هذا الإنسان العذب، هذا الرقيق، مثل فراشة، والذي كان بيني وبينه عندما سافر رسائل ما أزال أحتفظ بها، هو الذي عرفني على أفلاطون وهيغل واشبنغلر، وجعلني أقرأ كتاب سقوط الحضارة مرتين، اسأل عنه الطلاب هنا في كلية الآداب ليحدثوك عن أستاذ بارع في تحليل الشعر وفق المنهج النفسي، الرجل الأفلاطوني، رحمه الله، الدكتور عصام قصبجي.

. توفي؟

. نعم، فجعنا جميعاً بموته، وهو في الثالثة والستين.

أنظر في ساعة يدي، وإذا هي الثانية والنصف، أهم بالنهوض، أقول له:

. أنا مضطر للمغادرة، لي كتاب عند الآنسة ابتسام جارتك، أخشى أن تتصرف وتنساني.

. لا تخف، ابتسام صادقة، ودقيقة في وعدها، وهي في كثير من الأيام تبقى هنا حتى الرابعة، لتنجز ما تراكم من أعمال زميلاتها.

. وهل يصرف لكم العميد أي تعويض عن هذا الدوام الإضافي.

. قلت لك أنا متقاعد، وآتي إلى هنا حباً في المكتبة والكتاب ووفاء لأستاذي عبد الوهاب الصابوني، أنا لا أريد أي مكافأة، أنا أعيش على قدر راتبي، حتى عندما كنت على رأس عملي كنت لا أطالب بأي تعويض إضافي.

. أنا لي لقاء بعد غد مع السيد وزير التعليم العالي، سأقترح عليه نقلك إلى أمانة المكتبة العامة بدمشق، أو أميناً لمكتبة مجمع اللغة العربية، أنت تستحق التقدير.

ـ أرجوك، أنا لا أريد مغادرة هذه المكتبة، أنا أمين عليها، ومن الخيانة تركها، ولا أحب أي شكل من أشكال الوساطة، أشكرك.

أقف أمام صورة عصام قصبجي، أمام صورة الصابوني، وهما متجاورتان، أسأله:

. هل رواية "عصام" عن عصام قصبجي؟

. لا، بطلها اسمه عصام.

. وهل عصام هو ابن عبد الوهاب الصابوني؟!

. لا، هذا عصام قصبجي، وذاك عبد الوهاب الصابوني.

ـ أوه، انت جعلتني أضيع بين الاثنين، والآن سأسألك، ومن هو أبو عصام الذي يوزع عليكم الياسمينات، من المؤكد أنه لا عصام بطل الرواية ولا أبو الدكتور عصام قصبجي رحمه الله.

. أبو عصام هو أنا.

. أنت؟؟؟؟

. نعم، أنا.

. أنت من يوزع الياسمينات على الصبايا.

ـ نعم، وهل أجمل من زهرة تهديها إلى زهرة، وأنا الآن سأهديك زهرات لا زهرة، سأهديك كل هذه الزهرات.

. وهل عندك ولد اسمه عصام؟.

ـ لا، أنا أنادى أبو عصام لحبي الدكتور عصام، ورواية عصام، ولأن ولدي الأول اسمه عصام، ألا يحق لي ذلك؟.

. يحق لك، وزيادة.

عند الباب، وقبل أن أغادر، يسألني:

. ستمر بالسيدة ابتسام؟

. طبعاً.

. أرجو أن تحمل لها سلامي، قل لها هذا سلام خاص حملني إياه أنا بالذات أبو عصام، حملُك أنت بالذات السلام له دلالة خاصة عندها، أرجو أن تبلغها السلام.

. هل تريد إعطاءها هذه الزهرات.

. لا، هذه الزهرات لك، أنا أعطيتها حصتها في الصباح.

*

أغادر المكتبة، وفي قبضة يدي حفنة ياسمينات ذابلة، وبيدي الأخرى ثلاثة كتب من تأليف حسن بيضة، أمر في البهو بحاوية صغيرة لأعقاب السكائر، أرمي فيها بالياسمينات الذابلة، الكتب سأتصفحها في الحافلة وأنا في الطريق إلى دمشق، ثم سأعطيها إلى جاري في المقعد، أو أتركها على المقعد وأنا أغادر الحافلة، لست بحاجة إلى مزيد من الكتب، كرهت كل شيء.

أمر بغرفة الطباعة، الباب مغلق، أقرعه، وما من مجيب.

أنظر في ساعة يدي، وإذا هي الثانية والنصف وسبع دقائق، خدعتني وانصرفت، لم تطبع القرار ولم توقعه، قبلنا بالتأخر في إنجاز الأعمال، ولكن لماذا الكذب؟ ليتها قالت لي غداً أنجز لك القرار، ماكان من الضروري أن تكذب وتقول إنها ستبقى حتى ما بعد نهاية الدوام وستطبعه بنفسها؟ فهذا أمر لا يطاق، وحسن بيضة العاشق الأفلاطوني يدافع عنها ويقول إتها تداوم إلى الساعة العاشرة ليلاً وتنجز ما تراكم من أعمال زميلاتها، ثم يحملني السلام لها، وهي تحملني السلام له، وأخيراً أكتشف أنه هو أبو عصام بائع الورد، أغبياء، ويكذبون، لا أعرف لماذا نكذب؟.

أخبط على الباب مرتين، بقبضة يدي، ثلاث مرات، أود لو أحطمه بقدمي، أمضي في البهو، وأنا ألعن وأشتم.

صوت من ورائي ينادي

. دكتور أحمد، دكتور أحمد!!

ألتفت وإذا هي ورائي تخرج من باب المكتب وتجري في إثري.

ـ سامحني دكتور، كنت أصلي العصر، ما استطعت قطع صلاتي، كنت في الركعة الأولى، تفضل هذا القرار وهو مطبوع وموقع من العميد وسجلته في الديوان وأخذ الرقم والتاريخ مع كتاب إرساله إلى جامعة دمشق، وفنجان قهوتك جاهز تفضل إلى مكتبي.

. أشكرك، يجب أن أسرع في العودة إلى زوجتي والأولاد، يكفي أن أحمل معي قرار تكليفي بالساعات الإضافية في حلب.

. والياسمينات؟

. اتركيها للزيارة القادمة.

.

قصص قصيرة جداً

هي نفسها

وهو إلى جوار النافذة في الحافلة، لفتت نظره من بين المشاة على الرصيف امرأة، حركتها، مشيتها، ظهرها، فستانها، شعرها، كل شيء فيها ساحر فاتن، رشاقة، أناقة، أين منها زوجته، لا تشبهها في شيء، تمناها زوجة لنفسه، تجاوزتها الحافلة، التفت إليها ليرى وجهها، وإذا هي زوجته.

حلم الجد

أسرع هشام إلى جده يروي له حلمه:

ـ شوارع المدينة خالية، لا سيارات، لا مشاة، والمحلات كلها مغلقة، وأنا وحدي على دراجة هوائية، أقودها كما شئت، وآتي بحركات بهلوانية، ما تفسير حلمي ياجدي؟

ورد الجد:

ـ سيشتري لك أبوك دراجة.

قبل أن يغادر هشام جده سأله:

ـ هل حلمت الليلة ياجدي؟

أجابه الجد:

. نعم ياولدي، رأيتني أنهض من فراشي في الليل وأمضي إلى الحمام مسرعاً، لقضاء حاجتي، وهناك تزل قدمي، أقع، كنت وحدي، وأنادي وأنادي وأنادي.

يقول هشام:

. لكن ما سمعت صوتك ياجدي.

الجد يضحك.

. كان هذا حلمي ياولدي، ألم تسأل عن حلمي.

السوق

عربة تحت شجرة إلى جوار الرصيف لبيع اللحم، البائع يرمي قطعة من اللحم لقطة، كلب يركض في إثرها، القطة تجري وتختبئ في مدخل عمارة، سيارة شرطة البلدية تدخل إلى الشارع، البائع يجري بعربة اللحم، يخبِّئها بين عمارتين، بعد قليل يرجع بعربته إلى موضعه تحت الشجرة إلى جوار الرصيف، القطة ترجع إليه، يرمي لها، الكلب يجري في إثرها، تدخل سيارة الشرطة، يختبئ بعربته، ثم يرجع وترجع القطة، ثم تجري ويجري الكلب، وترجع السيارة ويختبئ بالعربة، وترجع القطة، ويجري الكلب، وتأتي ويجري ويرجع وترجع ويجري وتأتي ويجري..

الإبداع

ربطة عنق، تحتها قميص، فوقه سترة، على الرأس قبعة، في القدمين جوربان، يحتويهما حذاء، ينزل فوقه سروال، في اليد سبحة، في جيب السترة حافظة نقود، كل هذه الأشياء من لون واحد.
هذا هو سر التميز والإبداع.

بين الثرى والثريا

قصدت إليه لزيارته، وقفت أمام المحل مدهوشاً، كل شيء تغير، لعله باع المحل، لكنه خرج إلي مرحّباً، سألته:

. ماهذا؟

. كما ترى، كنت أنظر إلى فوق، صرت أنظر إلى أسفل، كنت أتعامل مع النجوم في السماء، صرت أتعامل مع الغبار على الرصيف.

. والبضاعة؟

. بعت أكثرها جملة، ونقلت ماتبقى إلى البيت، علقته في السقف.

لم أدخل المحل، ودَّعته ومضيت، وأنا أقول له:

. سأزورك في البيت.

كان يبيع الثريات أصبح يبيع الأحذية.

رعاية

وقع يوسف طريح الفراش، علَّته طالت، تسع سنوات، لم يشف ولم يمت، أخوه كان يرعاه، وبدأت زليخة ترعى أخاه.

الخدعة الأخيرة

خدعة أجراها مئات المرات في قرى ومدن كثيرة، سحر عيون الناس، وضع على المنضدة ثلاث قبعات، لمس بعصاه القبعة الأولى خرج منها فأر، لمس بعصاه القبعة الثانية خرج منها قط، ووقف الساحر يرقب الجمهور مزهواً، والجمهور ينتظر لمس القبعة الثالثة، كان يلمس بعصاه القبعة الثالثة فتنقلب إلى كلب، وبعض استعراض طال، وهو واقف مزهواً، لمس الساحر بعصاه القبعة الثالثة، خرج منها نمر هجم عليه فالتهمه.

عشرة أمثالها

سأله زميله صاحب المعمل المجاور:

. كم كلفك افتتاح المعمل؟

أجابه:

. ثلاثة ملايين للدعاية والإعلام، وخمسة ملايين للعلاقات العامة.

علق زميله:

. أنا كلفني افتتاح المعمل العام الماضي عشرة ملايين، اعتبرتها زكاة أموالي، صدقتي، بسنة واحدة، الله عوضها علي بعشرة أمثالها.

العرض متواصل

استمر عرض المسرحية ثلاث سنوات متواصلة، وعند انتهاء العرض، في كل ليلة، يخرج جمهور المتفرجين، وعلامات الرضا بادية على وجوههم، كانت الرقابة قد اتخذت الاحتياطات الضرورية قبل العرض الأول، لأنها خشيت خروج الجمهور في مظاهرة.

ساعة يدي المعدنية

وجدت نفسي على الرصيف متجهاً إلى بائع الفجل، فجل بلدي أحمر، كل فجلة بحجم كرة السلة، وأمامه على الرصيف ميزان ذهب حساس، الغرام بألف، انزلقت بي خطاي كأني أسير على جسر متحرك، عند نهاية الرصيف قبان أرضي يزن الرصاص بالأطنان، وحوله زحام، مد البائع يده وحشا في يدي رصاصة.

فتحت عيني، وإذا أنا في الفراش، وأصابعي ممسكة بساعة يدي المعدنية.

غمامتان

غيمة بيضاء قالت لأختها السوداء:

. أنت محملة أكثر مني بالماء، هيا أفرغيه قبلي، أنت تعبت من حمله.

ردت:

. لن أفرغه هنا فوق هؤلاء المتقاتلين حتى لا يلوثوه بأحذيتهم.

أجابت الغمامة البيضاء:

. أنا سأفرغ فوقهم حمولتي الضئيلة، ففيهم جرحى وعطشى.
سمع المتقاتلون تحاور الغمامتين فأطلقوا عليهما الرصاص.

موسى الثاني
صبية تحمل وعاءها وتقف بعيداً عن القوم المزدحمين على صنابير المياه تنتظر أن يخف الزحام.
اقترب منها شاب، وهمس:
. أين أختك؟
ردت:
. أنا وحدي.
علق:
. أنا اسمي موسى، اتبعيني إلى البيت لأملأ لك.

ما يزال يتحدث
لا أعرف كيف هبط إلى جواري في مقعد الحافلة، وأخذ يحييني بصوت مرتفع، ويعيد السؤال عن الصحة والعمل والبيت والأولاد ويكرر السؤال، وأنا أجيبه بصوت هامس، ثم أخذ يحدثني عن صديقنا الذي هاجر إلى أوربة وصديقنا الثاني الذي أحيل على التقاعد، وعن صديقنا الثالث الذي توفي، ويكرر الحديث عن الأول، ثم الثاني، ثم الثالث، ثم ذكر صديقاً له لا أعرفه طلق زوجته بعد زواج ثلاثين سنة، وعيون الركاب في

الحافلة تحدق بي تارة وبه تارة أخرى، نهضت لأنزل، فسأل مستنكراً: ما زال أمامك ثلاثة مواقف للوصول إلى البيت؟ أجبته: سأمر بمحل لشراء بعض الحاجات، نهض، وقال: سأنزل معك، لأكمل لك بقية الحديث، وعلى درجة الحافلة كان في إثري وهو ما يزال يتحدث.

الاسم المناسب

صعدت الدرجات إلى السجل المدني تحمل فوق ظهرها أعوامها الثمانين، اتجهت إلى الموظف، قدمت له بيان الولادة، تريد تسجيل حفيدها اليتيم، سألها الموظف عن الاسم، قالت: طارق، وكان الجواب بالرفض، صلاح، خالد، عمر، رفض، رفض، ثم صاح في وجهها: نحن في زمن الحرب، قالت: سليم سالم سلامة سلام سليمان، صاح بها: سأقرأ عليك هذه الأسماء اختاري منها ولا تجادليني، غيرها ممنوع، اسمعي: قاتل قتيل قتلان مقتول قتّال.

الأصفار

سألتْني:

. ما العلامة التي ستمنحها لسهرتنا ليلة أمس؟

أجبتها مازحاً:

. لن أقول الصفر، بل سأقول الأصفار.

ردت بسرعة وهي جادة:

. طبعاً، كي أضع على يسارها الرقم الذي أريد.

خنادق عميقة وعريضة

أمضي إلى قلب المدينة، إلى أكثر شوارعها ازدحاماً، هو الشارع الذي يقصده الناس للفرجة والتسلية، مع ثلاثة من أولادي، لا أعرف بالضبط أي الثلاثة هم، فعندي تسعة أولاد، نمشي أمام بضع محلات، نتفرج على الواجهات الزجاجية المضاءة، ثم أصعد في الحافلة، لست متأكداً لماذا صعدت فيها، أظن أني كنت قاصداً إلى استلام الصور الشخصية، الحافلة مزدحمة، أنزل في شارع فيه دور عرض ومسارح، ولكن ما إن أمضي بضع خطوات حتى أسمع صوت انفجارات، أتذكر أولادي الثلاثة، لاشك في أن أحد المارة سيدخلهم إلى محل ليخبئهم فيه، ولكن يتبين لي أن الانفجارات لم تكن إلا ألعاباً نارية، وهي تملأ السماء بأضواء مختلفة الألوان في أشكال جميلة، لا أعرف ما هي المناسبة، أقرر العودة إلى أولادي من طريق آخر مختلف، من طريق يمر من وراء العمارات، طريق مختصر، أجد نفسي خارج المدينة، في أرض خلاء، طينية، فيها أخاديد وشقوق، ثمة مشاريع للعمران، أقترب من الشارع الرئيسي، أرى السيارات تمر فيه، عليَّ أن أصل إليه، ولكن بيني وبينه خنادق عميقة وعريضة، لا يمكن القفز فوقها ولا يمكن اجتيازها، أحار

في أمري، أحس بالضيق، أكاد أسقط، في اللحظة الأخيرة أدرك أنه حلم، وأستيقظ.

الدكتور أحمد زياد مُحَبِّك
أستاذ الأدب العربي الحديث بجامعة حلب
عضو اتحاد الكتاب العرب

السيرة الشخصية :

- من مواليد مدينة حلب في ١/٥/ ١٩٤٩
- دكتوراه في الأدب العربي الحديث من جامعة دمشق عام ١٩٨٤.
- أستاذ الأدب العربي الحديث بجامعة حلب.

النشاط الثقافي:

- بدأ في النشر في كثير من الدوريات العربية بدءاً من عام ١٩٧٣، ومن هذه الدوريات المعرفة والموقف الأدبي والأسبوع الأدبي والثقافة ومجلة بحوث جامعة حلب في سورية، والكويت والبيان والعربي وعالم الفكر في الكويت، والمجلة العربية والخفجي والمعرفة والفيصل في المملكة العربية السعودية، وفصول في مصر، والقصة في تونس، ومجرة في المغرب

العربي، وعمان والمجلة الثقافية في المملكة الأردنية، وفي جريدة الجماهير بحلب.

- عضو اتحاد الكتاب العرب بدمشق منذ عام ١٩٨٣ .
- عضو هيئة تحرير جريدة الأسبوع الأدبي من عام ١٩٩٧إلى عام ٢٠٠٠ .
- عضو جمعية العاديات بحلب منذ عام ١٩٩٨
- حاز جائزة هيروشيما في المركز الياباني بحلب عن القصة القصيرة عام١٩٩٥
- حاز جائزة البتاني في الرقة عن القصة القصيرة عام ١٩٩٧.
- حاز جائزة جريدة الثورة بدمشق عن القصة القصيرة عام ١٩٩٨.
- حاز جائزة الباسل للإبداع الفكري بمدينة حلب عام ١٩٩٨.
- أمين سر اتحاد الكتاب العرب – فرع حلب منذ عام ٢٠٠١ حتى عام ٢٠١٠.
- أوفده اتحاد الكتاب العرب لمدة أسبوع إلى الجزائر العاصمة ١٩٨٨ في زيارة اطلاعية.
- أوفدته جامعة حلب إلى فرنسة ليحاضر في طلاب الدراسات العليا بجامعة ليون الثانية لمدة أسبوع عام ١٩٩٤.
- حاضر لمدة أسبوع في مدرسي اللغة العربية بمعهد تعليم اللغات الأم في استوكهولم بالسويد بدعوة من المعهد نفسه عام ٢٠٠٠.

- كرمته جمعية النقد الأدبي في اتحاد الكتاب العرب بدمشق بالتعاون مع فرع اتحاد الكتاب العرب في حلب عام ٢٠٠١.
- أوفدته جامعة حلب إلى جامعة عين شمس بالقاهرة بمهمة البحث العلمي لمدة أربعة أشهر عام ٢٠٠٢.
- عضو لجنة تحكيم في مسابقات كثيرة في اتحاد الكتاب العرب وفي اتحاد شبيبة الثورة ومنظمة الطلائع وجائزة باسل للإبداع الفكري في مدينة حلب لدورات متعددة.
- عضو لجنة تحكيم في مسابقة القصة القصيرة التي أعلنت عنها مجلة ديوان العرب (الإلكترونية) في القاهرة عام ٢٠٠٥.
- عضو أسرة التحرير في موقع ديوان العرب ٢٠٠٨.
- حاضر لمدة أسبوع في كلية الإلهيات في جامعة وان بمدينة وان في تركيا عام ٢٠٠٩
- عضو المجلس الأعلى للغة العربية، بيروت، ٢٠٠٩.
- أوفدته جامعة حلب للمرة الثانية إلى جامعة عين شمس بالقاهرة بمهمة البحث العلمي لمدة أربعة أشهر عام٢٠١٠.
- عضو لجنة تحكيم في مسابقة ديوان العرب للمجموعة القصصية عام ٢٠١٢
- عضو لجنة تحكيم في مسابقة ديوان العرب للقصة القصيرة جداً عام ٢٠١٦
- رئيس اتحاد الكتاب العرب فرع حلب منذ عام ٢٠١٥

- رئيس تحرير مجلة بحوث جاكعة حلب منذ عام ٢٠١٧
- رئيس قسم اللغة العربية منذ عام ٢٠١٨

المؤلفات المنشورة :

- **حركة التأليف المسرحي في سورية،** (دراسة) :
اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٢، ٤٣٠ صفحة، قطع كبير
- **من الحكايات الشعبية،** (حكايات شعبية):
وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٣، ١٩٤ صفحة، قطع وسط.
- **يوم لرجل واحد،** (قصص قصيرة):
اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٦ ، ٢٠٠ صفحة، قطع وسط
- **المسرحية التاريخية في المسرح العربي المعاصر،** (دراسة):
دار طلاس، دمشق، ١٩٨٩، ٣٧٤ صفحة، قطع كبير
- **حجارة أرضنا ،** (قصص قصيرة):
مطبعة عكرمة، دمشق، ١٩٨٩، ١٠٩ صفحات، قطع صغير
- **الكوبرا تصنع العسل،** (رواية):
دار القلم العربي، حلب، ١٩٩٦، ١٤٥ صفحة، قطع كبير
- **بدر الزمان،** (مسرحية):
دار القلم العربي، حلب، ١٩٩٦، ١٠٤ صفحات، قطع كبير
- **حلم الأجفان المطبقة،** (قصص قصيرة):

اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٦، ٣٣٥ صفحة، قطع وسط

- **عريشة الياسمين،** (قصص قصيرة):

دار القلم العربي، حلب، ١٩٩٦، ٢٥٦ صفحة، قطع وسط

- **دراسات في المسرحية العربية،** (دراسة) :

مطبوعات جامعة حلب، حلب، ١٩٩٧، ١٨٥ صفحة، قطع كبير

- **حكايات شعبية** (نصوص ودراسة) :

اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٩ ، ٧٧٠ صفحة، قطع وسط

- **دروب الشعر العربي الحديث** (دراسة) :

مطبوعات جامعة حلب، حلب ٢٠٠٠ ، ٢٤٠ صفحة، قطع كبير.

- **لأنكِ معي** (قصص قصيرة جداً) :

دار شمأل، دمشق، ٢٠٠٠ ، ١٨٠ صفحة، قطع صغير.

- **طعم العصافير** (قصص قصيرة) :

دار القلم العربي، حلب، ٢٠٠١، ١١٢ صفحة، قطع وسط.

- **قصائد مقارنة** (دراسة ونصوص) :

مطبوعات جامعة حلب، حلب،٢٠٠١، ١٢٥ صفحة، قطع كبير.

- **دراسات نقدية من الأسطورة إلى القصة القصيرة** (دراسة):

منشورات دار علاء الدين، دمشق،٢٠٠١، ٣٠٠صفحة، قطع كبير.

- **العودة إلى البحر**(قصص قصيرة):

اتحاد الكتاب العرب، دمشق،٢٠٠١، ١٥٣صفحة، قطع وسط.

- **الرحيل من أجل مها** (قصص قصيرة):

اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٣م، ٢٤٨صفحة، قطع وسط.

- **انكسارات** (بحوث ومقالات)

دار المعرفة، بيروت،٢٠٠٤، ٤٤٠ صفحة، قطع كبير.

- **الدكتور أحمد زياد محبك** (كتاب التكريم تأليف مجموعة من الباحثين):

اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٤ ، ٢١٦ صفحة، قطع كبير.

- **متعة الرواية** (دراسة)

دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٥، ٣٤٨ صفحة، قطع وسط.

- **من التراث الشعبي** (دراسة)

دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٥، ٢٧٦ صفحة، قطع وسط.

- **وردات في الليل الأخير** (قصص قصيرة)

دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٥، ٢٣٦ صفحة، قطع وسط.

- **عمر أبو ريشة والفنون الجميلة**، (دراسة)،

وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٦، ٢٠٨ صفحات.

- **قصيدة النثر**، (دراسة)،

اتحاد الكتاب العرب، دمشق،٢٠٠٧، ١٢٥ صفحة، قطع كبير.

- **قراءات في الشعر العربي الحديث، (دراسة)**،

مطبوعات جامعة حلب، حلب، ٢٠٠٧، ٣٠٠ صفحة، قطع كبير.

- **نوافذ وشرفات، (مقالات)**،

دار الثريا، حلب، ٢٠٠٧، ١٦٠ صفحة، قطع كبير.

- **ريش نعام**، (قصص قصيرة جداً)،

دار الثريا، حلب، ٢٠٠٧، ١١٢ صفحة، قطع وسط.

- **نجوم صغيرة**، (قصص قصيرة جداً)،

مطبعة الأصيل، حلب، ٢٠٠٨، ٨٠ صفحة، قطع وسط.

- **الأعمدة والغزالة**، (قصص قصيرة)،

دار الثريا، حلب، ٢٠٠٩.

- **اللغة العربية وثقافة القرن الحادي والعشرين**، (دراسة)

دار الثريا، حلب، ٢٠٠٩، ١١٢ صفحة، قطع كبير.

- **دراسات في المسرحية العربي**، (طبعة جديدة مختلفة كلياً)

مطبعة جامعة حلب، حلب، ٢٠١٠، ١٧٥ صفحة، قطع كبير.

- **حمامات بيض ونارجيلة، (رواية)**

دار الفرقان للغات، حلب، ٢٠١١، ١١٢ صفحة، قطع كبير.

- **عمر أبوريشة والفنون الجميلة**، (دراسة)، طبعة ثانية
دار الفرقان للغات، حلب، ٢٠١٢، ١١٢ صفحة، قطع كبير.
- **نقد السرد**، (دراسة)
دار الفرقان للغات، حلب، ٢٠١٢، ١٤٤ صفحة، قطع كبير.
- **فوق سطح العمارة، (مجموعة قصصية)**
دار الفرقان للغات، حلب، ٢٠١٢، ١٥٨ صفحة، قطع وسط.
- **أبو معتز والكناريات (مجموعة قصصية)**
اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠١٤، ١٩١ صفحة، قطع وسط.
- **ما أزال أنتظر (مجموعة قصص قصرة جداً)**
الشارقة، كتاب الرافد، آب، ٢٠١٥ ، ١٦٥ صفحة، قطع وسط.

المؤلفات بالمشاركة:

- ستة كتب في اللغة العربية لغير المختصين لجامعات سورية (١٩٨٨.١٩٨٦)
- خمسة كتب في اللغة العربية لغير المختصين لجامعة سبها بليبيا (١٩٩٢)

- كتاب أدباء من حلب (مشاركة وإشراف) (ستة أجزاء) حلب (٢٠٠٠. ٢٠١١)
- عشرون مادة لموسوعة (أعلام العلماء العرب والمسلمين) للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، في تونس (٢٠٠٤. ٢٠٠٧).
- الحركة الأدبية في بلاد الشام، مجلدان، إصدار الأمانة العامة لاحتفالية دمشق عاصمة الثقافة العربية، دمشق (٢٠٠٨).

عنوان المراسلة :

البريد العادي: كلية الآداب جامعة حلب حلب سورية

البريد الرقمي: mohabek@gmail.com

هاتف المنزل: ٠٠٩٦٣ ٢١ ٢٦٤٢١٣٢

الجوال والواتس أب : ٠٠٩٦٣٩٤٤٩٢٨٧٩٢

المحتوى

العنوان	رقم الصفحة
صورة على قبر العم أبو وحيد	٣
القميص الوردي	٢٦
حكاية يد	٤٥
حلم سامح	٥٧
سمر تحب سامر	٦٧
في الهواء الطلق	٧٦
الجد إسماعيل لا يركب البحر	٩٦
الكيس الأسود	١١٢
جدتي ترى جدي	١٢٤
شرفات وشرفات	١٣٣
الأراجيح والسوق القديم	١٣٦
المرآة والسرير	١٤٩
صبارة صغيرة	١٥٩
هل يستحق المساعدة	١٧٨
المرضعة	١٨٥
فيلم بعد الغداء	١٩٤
سيارات السيرفيس	٢٠٣
صباح ليلة عاصفة	٢١٦

عيد ميلاد المدير ٢٢٠
أبو عصام ٢٣١
قصص قصيرة جداً ٢٥٩
المؤلف ٢٦٨
المحتوى ٢٧٧